كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

النزاعات على الحدود الغربية للأندلس من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري / العاشر والثاني عشر الميلادي
مدينة يابُره "ايفورا" نُموذجاً

إعداد

د/ شيماء عبد الحميد البنا

مدرس التاريخ الإسلامي وحضارته
بكلية الآداب جامعة دمنهور

(العدد التاسع والثلاثون)

(الإصدار الأول ـ الجزء الأول)

(١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م)

النزاعات على الحدود الغربية للأندلس من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري / العاشر والثاني عشر الميلادي

مدينة يابُره "ايفورا" نُموذجاً[1]

شيماء عبد الحميد سعد البنا

قسم التاريخ الإسلامي وحضارته – كلية الآداب – جامعة دمنهور– مصر

البريد الإلكتروني: shaymaa.elbana@art.dmu.edu.eg

الملخص :

تمتد الحدود الجغرافية لمدينة يابُرة في منطقة غرب الأندلس (أي البرتغال حالياً)، فيحدها من الشمال نهر التاجة الذى تقع عليه مجموعة مهمة من المدن الإسلامية، ومن الشمال الغربي مدينة لشبونة، ومن الجنوب مدينة باجة، علماَ بأن يابرة تقع على الحدود الإسبانية من ناحية الشرق. وجعل هذا الموقع الاستراتيجي المتميز من يابرة المدخل والبوابة الرئيسية إلى وسط وقلب الأندلس، كما أنها من أهم مدن إقليم بطليوس إذ كانت جزء من إقليم حدودي على مقربة من الحدود البرتغالية. وتعتبر هذه المدينة الدرة الثمينة لمملكة بطليوس، وهي محمية بحدود طبيعية حيث أنشئت على جبل يميزها ويفصلها عن باقي الأندلس، واكتسبت شهرتها من موقعها الاستراتيجي في محور كثير من الطرق البرية عبر أوروبا. لقد كانت تتوسط مجموعة ممالك إسلامية ومسيحية ، إذ كان يحدها من الشمال مملكة

---

(١) هذا البحث تم القاوه كفكرة فى أشغال الملتقى الدولى احادى عشر الذى نظمته الجمعية التونسية المتوسطية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية بالتعاون مع المركز التونسى العالمى للدراسات والبحوث والتنمية حول موضوع الحدود والمناطق الحدودية بمدينة المنستير (تونس) فى الفترة من ٢٨ –٣٠ نوفمبر ٢٠١٨م.

ليون ومن الجنوب مملكة بنى عباد ومن الشرق مملكة ذي النون في الوقت الذى كانت فيه مدينة يابرة تابعة لمملكة بنى الأفطس. وبالتالي كانت مدينة يابرة البوابة الذهبية لعبور أي طرف لممتلكات الطرف الآخر: فهي بالنسبة للمسلمين كانت المدخل والبوابة نحو الشمال مملكة ليون، وبالنسبة للمسيحيين كانت بوابة العبور نحو وسط وجنوب الاندلس؛ ولذلك سعى أردون الثاني ملك ليون بكل ما أوتى من قوة لضمّ هذه المدينة إلى حدود مملكته، وعمل جاهداً للاستيلاء عليها. فقد استخدم كل أعمال العنف والتخريب والإرهاب التي آلت إلى الحرب مع أهالي يابرة لكى يدخل تلك المدينة عنوة، ثم يضمها إلى أملاكه في ليون. لكنّ أردون لم يستطع وضع يده عليها خوفاً من تشابك الحدود في هذه المنطقة الجنوبية والشرقية، إضافة إلى علمه بوصول الإمدادات إليها من الأماكن المجاورة؛ ولذلك اكتفى بما أقامه بها وعاد مسرعاً إلى ليون. وبقيت مدينة يابرة خراباً نحو عام، ثمّ قام عبد الله بن محمد الجليقى صاحب بطليوس باستيطانها وتعميرها بعد أن جردت من كل سكانها. وعرفت يابرة بعد ذلك صراعا مع حدودها الجنوبية ومملكة بنى عباد التى استطاعت أن تغيّر شكل الحدود في غرب الأندلس، حيث سيطرت عليها وعلى بقية مدن الغرب. وظل الوضع بالنسبة للمدينة على ما هو عليه حتى دخل المرابطون الأندلس، وبذلك تغيّرت الخريطة السياسية إذ لم تعد هناك فكرة تقسيم الأندلس إلى عدة ممالك. فقد توحدت الأندلس تحت رايتهم وضموا يابرة إلى ممتلكاتهم، وسرعان ما توالت الأحداث مع ظهور دولة الموحدين. لكنها كانت كصحوة الموت حيث اشتعلت في المدينة النزاعات والثورات، وانتهى الأمر بضمّها إلى أملاك الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وتحولت من مدينة إسلامية الى مدينة مسيحية.

الكلمات المفتاحية :

مدينـة يـابرة – غـرب الانـدلس – أردون الثـاني– البرتغـال – ملـك ليـون – سقوط يابرة .

Conflict on the western border of Andalusia in the 4th and 5th centuries AH / 10th and 11th centuries AD "The City of Yabra "Evora" is a model"

Shaima Abdul Hamid Saad Al-Banna
Department of Islamic History and Civilization - Faculty of Arts - Damanhur University – Egypt
Emeil : shaymaa.elbana@art.dmu.edu.eg

Abstract :

The geographical boundaries of the city of Yabra are in the west Andalusia region (now Portugal). It is bordered on the north by the Taj River, which is located on an important group of Islamic cities. It is located in the north-west of Lisbon, and from the south is the city of Beja. the East. This strategic location has made it a major gateway to the center and heart of Andalusia. It is also one of the most important cities of the province of Badajoz, which was part of a border province close to the Portuguese border. The city is considered the precious jewel of the kingdom of Badelius, a natural reserve, established on a mountain that distinguishes it and separates it from the rest of Andalusia, and gained its fame from its strategic position in the axis of many land routes across Europe. It is also the center of a group of Islamic and Christian. It was bordered to the north by the kingdom of Lyons and from the south by the kingdom of Beni Abad and from the east by the kingdom of Nun, He built the snows. Thus, the city of Yabra was the golden gate for the crossing of any party to the property of the other party: for Muslims, the entrance and gateway to the north was the Kingdom of Lyons, and for

the Christians was the gateway to the center and south of Andalusia. Therefore, the king of Ardonio II sought the power to annex this city to the borders of his kingdom and worked hard to seize it. He used all the violence, vandalism and terror that led to the war with the people of Jabra to enter that city forcibly, and then annex it to his property in Lyon. But Ardonio II could not get his hand on it for fear of tangled the border in this southern and eastern region, in addition to knowledge of the arrival of supplies from neighboring places, so he did what he set up and returned quickly to Lyon. The town of Yabra remained desolate for about a year, and then Abdullah bin Mohammed al-Jalai, the owner of Badlius settlement and reconstruction after being stripped of all its inhabitants. Later, Yabra identified a conflict with its southern borders and the kingdom of Bani Abad, which was able to change the shape of the borders in the west of Andalusia, where it controlled the rest of the western cities. The situation for the city remained the same until the Almoravids entered Andalusia, thus changing the political map as there is no longer the idea of dividing Andalusia into several kingdoms. Andalusia united under their banner and joined their property, and the events soon began with the emergence of the Almohad state. But it was like the death squeak where the city caught up with conflicts and revolutions, and ended up annexing it to the kingdoms of Christian kingdoms in northern Andalusia, turning from an Islamic city into a Christian city

Keywords: **Yabra, West Andalusia, Ardono II, Portugal, King of Lyon, The fall of Yabra.**

مُقدّمة

قبل الخوض في غمار الحديث عن هذا البحث التاريخي الديناميكي ومحاوره لابد من توضيح المعنى الاصطلاحي لمفردات العُنوان ؛ولذلك يتوجب علينا تعريف النزاع الحدودي Boundary Dispute الأمر الذى يتطلب بيان معنى الحد في الاصطلاح اللغوي والقانوني ، فمدلول الحد لغة متعدد، فيأتي بمعنى: منتهى الشيء ، وهو الحاجز أو الفاصل بين شيئين ؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر ،أو لئلا يتعدى أحدهما على الأخر. ويأتي بمعنى المنع، كما يعنى الصرف عن الشيء من الخير والشر. والمحدود: الممنوع من الخير وغيره، ولا يبعد الحد اصطلاحاً عما ذكر في مدلوله اللغوي ؛ حيث يعنى في اصطلاح القانونيين : الخطوط المرسومة التي تفصل ما بين إقليمين، أو بالأحرى ما بين سيادتين متجاورتين . ولهذا تحرص الدول على أن تكون حدود إقليمها معينة ومُخططة على نحو دقيق وواضح ، بما يجنبها هي والدول المجاورة لها أية نزاعات بشأن الحدود. كما أنه القول الدال على ماهية الشيء [1].

ولابد من الأخذ في الاعتبار وجود فرقٍ كبير بين الحدود والتخوم ، فالتخوم تعنى الفاصل بين الأرضين من الحدود والمعالم ، وهو منتهى كل قرية أو أرض في حين كون الحدود خطوطًا مرسومة على الأرض ، كما أن التخوم طبيعية؛ لأنها

(١) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري "ت٧١١هـ"، لسان العرب، الجزء الثالث، مادة [حدد] ، دار صادر بيروت ،د.ت، ص١٤٠/ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ، تحقيق مجمع اللغة العربية، الجزء الأول ، مادة [حدد]، دار الدعوة ، د. ت ، ص١٦٠، على بن محمد بن على الجرجانى "ت٨١٦هـ" / التعريفات، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٠٥هـ، ص١١٢/ نادية عبد الفتاح عشماوي السيد، التسوية السلمية لنزاعات الحدود في أفريقيا في اطار التحكيم الدولي ، المكتب العربي للمعارف، ص١٧.

أجزاء من سطح الأرض ، بينما الحدود من صنع الإنسان ، والتخوم لا يمكن تحريكها أو زحزحتها ؛ لفقدها حينئذٍ بعض الخصائص التي أعطتها صفة التخوم، بل تبقى في موضعها على عكس الحدود التي تتغير، ولا تظل على حال خاصة في مناطق الصدام . مما يعنى أن الحدود موضع جغرافي تلتقى عنده قوى دولتين، وينتهى عند هذه الحدود نفوذ كل دولة وقوانينها. ويجب علينا أن نتذكر أن الحدود أنواع ، منها ما هو طبيعي : قد تكون جبلية أو مائية ، ومنها ما هو اصطناعي : قد يكون خطوطًا فلكية أو خطوطًا هندسية أو خطوطًا اتفاقية [١].

ومن ثم فإن الحد السياسي Political Boundary يقصد به الحد الذى يقوم على تحديد نطاق الاختصاص الإقليمي للدول .

وأما بالنسبة لتعريف نزاع الحدود فهو: الخلاف الذى ينشب بين دولتين أو أكثر بشأن تحديد المسار الصحيح لخط الحدود المشترك، وذلك في ضوء السند أو الصك القانوني الذى تم بموجبه التعيين لهذا الخط ابتداءً ، والذى يمكن أن يكون اتفاقاً دولياً . أو قراراً صادراً عن هيئة تحكيم دولية ، أو حكماً قضائياً دولياً ، أو قرارًا صادراً عن منظمةٍ دولية. ونزاعات الحدود بصفة عامة لا تثور إلا بين دول متجاورة جغرافياً ، أو بين دول متقابلة .وللنزاع الحدودي الذي ينشأ بين الدول أو الوحدات السياسية ذات السيادة أربعة أشكال، وهذه الأشكال هي: الشكل الأول يُعرف بالنزاع الإقليمي Territorial Dispute، وهو ما ينشأ حول منطقة ما عندما تحاول دولة ما انتزاعها من جارتها نتيجة لميزة في هذه المنطقة تستقطب الدولة التي تبدأ بإثارة النزاع. والشكل الثاني، وهو النزاع الذى ينصرف إلى موقع الحدود السياسية، وذلك نتيجة للغموض الذى يحيط بتحديدها "كالغموض في نص الاتفاق "أو تعيينها " في

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، مادة [تخم] ، ص٦٤/ محمد عوض الهزايمة، قضايا دولية تركة قرن مضى وحمولة قرن آتى، عمان، ٢٠١٠، ص١٢٠-١٨٨.

الواقع العلمي " وغالباً ما يتضمن جدالاً حول تحديد ووصف الحدود السياسية، ويطلق على هذا النوع Positional Dispute. ومن الجدير بالذكر أن كلاً من الشكلين الأول والثاني يهدف إلى تغيير موضع الحد السياسي، بينما لا يتطلب الشكلان الآخران هذا التغيير. والشكل الثالث يرتبط بوظيفة الحد السياسي، ويسمى النزاعات الوظيفية Function Disputes، والشكل الرابع والأخير هو النزاع حول استغلال الثروات الاقتصادية، والتي تقع عبر الحدود؛ مثل نهر أو منجم أو حقل نفط، وذلك بهدف تنظيم عملية الانتفاع بموارد معينة، ويعرف بالنزاع حول الموارد الاقتصادية [١].

١) نادية عبد الفتاح عشماوي السيد، التسوية السلمية لنزاعات الحدود في أفريقيا في اطار التحكيم الدولي ،ص١٨-١٩.

المحور الأول

الموقع الجغرافي والاحتجاجات والنزاعات الحدودية على مدينة يابرة

أ- الحدود الجغرافية والأهمية الاستراتيجية لمدينة يابرة Evora:-

نحن بصدد موضوع غاية في الأهمية، وهو حدود المدينة، وهذه الأهمية نابعة من تناولنا أهم جزء موجود في المدينة، ألا وهو حدودها التي تمثل اللحاء بالنسبة للأشجار، والجلد للإنسان. فمدينة يَابُرَه[1] "يبوره" بلد بغرب الأندلس ، تابعة

(١) تطلق عليها معظم المصادر العربية مدينة يابرة بياء وألف وباء مُوحدة وراء مُهملة وهاء، ويابر كلمة فارسية تعنى الضيعة التي يهبها السلاطين لأهل الحاجة ، ويطلق الإدريسي والحميري عليها يبورة أو يابورة ، والمصادر الإسبانية Evora ، والإنجليزية Yabrea ، كما وردت فى جغرافية استرابون Ebura و Ebora ، وهى مدينة قديمة ، وتعنى نوع من الشجر السام الذى تتخذ عصارته لتسميم السهام أو الانتحار. وهى بلدة ليس فيها الآن أكثر من ١٦ ألف نسمة، وكانت هذه البلدة شهيرة في أيام الرومان، واستولى عليها العرب سنة ٧١٥ ميلادية، ثم استردها الإسبان سنة ١١٦٦م، وكان يجلس فيها ملوك البرتغال أحياناً ،

لكورة باجة الأندلسية التي تحدها من ناحية الجنوب، وتنتهى أحواز باجة Baja، فيما بينها وبين يابره حوالي مائة ميل [1]؛ وهذه المنطقة الشاسعة بين المدينتين – باجة ويابرة – من البسائط الخصبة التي تغطيها المحاصيل المختلفة، وغابات الزيتون، وتتمركز يابره في جنوب البرتغال، حيث إنها تتبع قسمها الجنوبي، وهى عاصمة إقليم المتيجو Almetejo الشمالي، على بُعد ٧٠ ميل، أي: ١١٧ كيلو

وإذا دخل إليها الإنسان يظنها مدينة عربية لكثرة مباني العرب =فيها وغلبة طرز الإنشاء العربي على مبانيها. ومن علمائها أبو بكر عبد الله بن طلحة اليابرى .

أبو عبد الله محمد بن إدريس الحمودى المعروف بالشريف الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الثاني ، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ،ص٥٤٤-٥٤٥؛/ الإدريسي ،المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من نزهة المشتاق في اخترق الآفاق ، طبعة بريل ،١٨٩٣،ص ١٧٥-١٨١/محمد بن عبد المنعم الحميري ،الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ،مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ،١٩٧٥،ص٦١٦/أبو الإصبع عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدى "ت ٤٨٦هـ"،الأعلام بنو ازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى ، تحقيق نورة محمد عبد العزيز، الجزء الأول والثاني، ص١٩٨ -١٩٩ / شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول، د. ت، ص١٩١/محمد بن على البروسوى الشهير بابن سباهى زاده "ت٩٩٧هـ ،" أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدى عبد الرواضية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص٦٥١ / موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، المجلد الثاني، جامعة السلطان قابوس، لبنان، ص١٠٢٤/ سحر سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص٢٠٧-٢٠٨؛

John Richardson for Peter Parker,Thomas Guy:A Dictioary ,English-Latin-English The Second Edition,Enlarged ,Containing All Things Neceffary for the Tranflating of either Language into the Other,London,1679,P.106.

(١) المِيل ؛ مقدار مد البصر عند العرب من الأرض، ويُقدر بثلاثة آلاف ذراع، والذراع ستة وتسعون ألف إصبع ، وهو وحدة قياس للمسافة تساوى تقريباً: ١٨٥٥متر. أحمد بن محمد الفيومى ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص٢٢٥-٢٢٦ / على جمعة ، المكاييل والموازين الشرعية، القدس، القاهرة ٢٠٠١، ص٥٣.

متراً من الأشبونة، وتقع جنوب شرقها، وبذلك تحدها الأشبونة شمالاً ، وتقع على مقربة ٨٠ كيلومترًا إلى الشرق من الحدود الإسبانية، فهي أقرب المدن الغربية إلى قلب الأندلس ؛ ولذلك يكون موقعها غاية في الخطورة .

أُسست يابرة على هضبة عالية تحيط بها الجبال من جميع الجهات ، مما يعنى أنها مدينة محصنة ومحمية طبيعية ، فهي تتمتع بموقع إستراتيجي حصين ومنيع ؛ لأن هذه المدينة يتوافر بها شرط لا يتوافر إلا في المدن الساحلية، ألا وهو وقوعها على جبل أو هضبة عالية حتى لا ترام، الأمر الذى أكسبها خصائص المدن الساحلية من الحصانة والمنعة رغم عدم سواحليتها.. كما أنها مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني اسمها ايبورا Ebora كما كانت تسمى " Liberalitas Julia" وقد نالت شهرة عالية زمن الرومان؛ لذلك الأمر الذى جعل الرومان يتخذونها عاصمة لهم، ويرجع لهم الفضل وإلى العرب في تشييد أسوارها وبناء أبراجها . والتي ما زال يوجد بها بعض الآثار الرومانية الهامة حتى الآن.

كما أنها – يابرة – محاطة بمجموعة مهمة من المدن والحصون كانت سبباً في بقائها فترة ليست بقصيرة في وجه أعدائها وفى ثرائها وزيادة أهميتها وإمدادها بكل ما تحتاجه، خاصةً وقتَ الأزمات والحروب، وهذا من أسرار أهميتها؛ فهي تقع في وادٍ خصيب يحيط به ويحده التلال والحصون والمدن الهامة من جميع الجهات، والدليل على ذلك مدينة Crato [١] على بعد ١٣ ميل من يابرة ، ومدينة Elvas [٢] التي تقع على بعد ٤٥ ميل من يابرة، ومدينة Eitremoz[١] على بعد ٢٥ ميل

(١) التي كانت مقر لكبار الفرسان بالبرتغال.

Charles Knight ;Geography or First Dibision of the English Cclopaediay , Volume I,London,1866,P.187.

(٢) وهى عبارة عن قلعة وحصن شهير ومنيع بالبرتغال.

من يابرة ، وحصن Monsarca [٢] الذى يقع على بعد ٣٢ ميل من يابرة، وأيضاً حصن Montemor-o-Velho الذى يقع على بعد ٢٠ ميل من يابرة التي كانت بمثابة قلعة وحصن، وMoura على بعد ٤٥ ميل من يابرة، وMourao على بعد ٣٥ ميل من يابرة، وOurique التي تقع على بعد ٨٠ ميل من يابرة وSerpa التي تقع على بعد ٥٠ ميل من يابرة، كما تقع Vttlavifosa على بعد ١٥ ميل من يابرة . وعلى الرغم من كل هذا إلا أن العرب استطاعوا فتح يابرة حوالى سنة٩٦هـ/ ٧١٥م، وصارت في أيامهم من أهم المدن، وتم تحريف اسمها إلى Yabura[٣].

Charles Knight ;Geography or First Dibision of the English Cclopaediay,P.187.

(١) وتقع بمكان مرتفع بالبرتغال تحميها قلعة ذات ترسانة كبيرة ومقر للحاكم في هذه المنطقة.

Charles Knight ;Ibid,P.187.

(٢) وهى تقع على الضفة الغربية لوادي يانه ومحاطة بالأسوار والحصون.

Charles Knight, Ibid,P.187.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البُلدان، المجلد الخامس، دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ، ص٤٢٤؛ أبو نصر الفتح بن خاقان الإشبيلي(ت ٥٢٩) / مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس، تحقيق محمد على شوابكة، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٣٥/ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة، ٢٠٠٠، بيروت، ص٣٢١؛ أبو عبد الله محمد القضاعى المعروف بابن الآبار، الحُلة السيراء، تحقيق حُسين مؤنس، الجزء =الثاني، دار المعارف القاهرة، ص٩٧؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول، ص١٩١؛ محمد عبد الله عنان، الأثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، الجزء الثامن ،ص٤١١؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، الجزء

مما سبق يتضح لنا أن مدينة يابره بحصونها أشبه بجزيرة تقع وسط البحر، ويحدها الحصون الصغيرة من جميع الجهات، مما يعنى أنها تمثل بناءً وهيكلاً متكاملَ الأركان مكتفياً بنفسه ذاتياً عن أي شيء خارجي. مما جعل منها حصناً حدودياً في المنطقة الواقعة ما بين الأندلس الاسلامية والممالك المسيحية .

وقد كانت يابرة من أعمال بطليوس [1] Batleous، ويفصلها عن بطليوس

الرابع، ص٥٢٢؛ مدينة إيفورا البرتغالية.. عندما تلتقي العمارة الرومانية والإسلامية نسخة محفوظة 27 نوفمبر ٢٠١٢ على موقع واي باك مشين، لندن؛ محمد محمود النشار ، تأسيس مملكة البرتغال السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦م ، ص١٧٥؛

Josiah CONDER :Dictionary of Geography ,ancient and modern,etc,London,1834,p.213.

Charles Knight Ibid,P.187.

Britannica Educational Publishing Portugal and Spain, Britanncia Educational Publishing2013,p.49

(١) مملكة بطليوس: تجاور مملكة إشبليه من الشمال، وتفضلها عنها جبال الشارات الكبري سيرامونيا، وتشتمل على رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطة حتي المحيط الأطلنطي، وتشمل أراضى البرتغال كلها تقريباً حتى مدينة باجة في الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس، وتتوسط بطليوس عدة مدن منها ماردە ويابرة و الاشبونه وشترين وشنترة وقلمرية وباز وغيرها.

للمزيد انظر محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر ، الجزء الأول ، ص ٨١؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس، ج١، ص١٦١.

مرحلتان[١] ، كما يفصلها عن مدينة القصر [٢]أيضاً مرحلتان التي يفصلها "القصر" عن البحر ب ٣٠ ميل. بالإضافة لكل هذا نجد يابرة تقع على الحدود الشرقية للبرتغال والغربية للأندلس. [٣]

كما كانت يابره تتبع إقليم القصر، وفيه القصر المعروف بقصر أبى دانس Alcocer do Sal ، وبطليوس Badajos، وشريشة Jerez de Los Caballeros، ومارداMeride، وقنطرة السيف Alcantara، وقورية Coria . وهذه المنطقة بمدنها تقع على الحدود الغربية بين إقليمي القفر [٤] جنوباً والبلاط شمالاً[٥].

مما سبق يتضح الأهمية الكبرى لهذه المدينة فهي مدينة من الطراز الأول بفضل موقعها الجغرافي المتميز الذى جعل منها حداً وفاصلاً بين الشرق والغرب، فهي مدينة تقع في مفترق الطرق؛ وتسبب ذلك في فوائد كثيرة لها ولمن حولها ،

---

(١) المرحلة : هي المسافة التي يقطعها السائر في نحو يوم أو ما بين المنزلين.
إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط، مادة [رحل] ، ج١، ص٣٣٥.

(٢) قصر أبى دانس: يقع غربي الأندلس. أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الأول ، ١٩٧٥، ص٤٧٥.

(٣) الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص١٨١/ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى "ت٦٢٦" معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، الجزء الخامس "ل- ى"، دار الكتب العلمية، ص٤٨٦

(٤) إقليم القفر : المراد به إقليم الجوف الممتد في غرب إسبانيا ووسط البرتغال، وسماه البكري بالمفازة، ومدنه: شنت مارية ومارتلة وشلب وغيرها من الحصون .
الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص١٧٥.

(٥) إقليم البلاط نسبة إلى مدينة صغيرة تسمى البلاط، ومن مدنها مدلين الحالية . الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص١٧٥.

كما أنها كانت حلقة وصل، لا فصل بين البلدان الشرقية والجنوبية، ومنها لباقي الأندلس .

ويابره مدينة كبيرة عامرة بالسكان ولها سور وقصبة ومسجد جامع وأسواق، كما يوجد بها الخصب الكثير الذى لا يوجد بغيرها من كثرة الحنطة واللحم وسائر البقول والفواكه ، وهى أحسن البلاد بقعة وأكثرها فائدة والتجارات إليها داخلة وخارجة [١]. مما سبق يتبين لنا دور الطبيعة في إغداق الكثير من النعم والامتيازات على يابرة ؛ الأمر الذى جعل منها مدينة زراعية منفردة عن غيرها بكثير من الزراعات، كما جعلت منها منطقةً جذب ومطمعاً للتجار، وهذا سر من أسرار أهميتها وطمع الكثيرين فيها.

لهذا كله كانت المدينة تحتل المكانة الثالثة من حيث الأهمية بين مدن البرتغال، وهى مركز وسكن لمعظم المسلمين والملوك المسيحيين، كما أنها كانت أكثر المدن إثارة للملوك البرتغاليين، وقد حدد علماء الآثار البرتغاليون تاريخ تأسيسها عام ٥٥٩ ق.م [٢].

من هذا كله يتضح لنا أن يابرة مدينة ثغرية؛ حيث موقعها القريب من أرض العدو، كما كانت عرضة للغارات الحربية ومحلاً لنشوب الصراعات في أراضيها، وبذلك تعد منطقة متكاملة بحصونها ومراكزها العمرانية وفى حالة اكتفاء ذاتي . فقد كانت هذه المنطقة تخضع لموجات من المد والجزر العسكري تُجسد الصراع

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٢، ص٥٤٤-٥٤٥؛ محمد عبد الغنى حسن، الشريف الإدريسي ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الاسكندرية،١٩٧١، ص١٣٠؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الأول، ص٦٦؛ محمد عبد الله عنان، الأثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص٤١١.

(٢) John Murray : Ahandbook for Travellers in Portuga, secon edition ,Londonl,1856,p.48.

الدائر بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس(١).

ب- قيام أردون الثاني ملك ليون بالاحتجاج والنزاع على مدينة يابرة وما ترتب على ذلك ٣٠١هـ/٩١٣م.

لقد تعددت صور الاحتجاجات والنزاع على حدود يابره، فمنها ما هو احتجاج مسيحي، ومنها ما هو إسلامي يشمل العرب والبربر. ويرجع السبب في تنوع النزاع على يابرة إلى تنوع السيادات المجاورة لها ، والاحتجاج غير السلمى يعنى الاعتراض والاستنكار وإعلان الرفض والمقاومة وأنواعه - الاحتجاج غير السلمى - كثيرة، فمنها الحصار والتخريب والعنف والتدمير والقتل والسبي وانتهاك الحرمات.

ولذا فإن أي نوع من أنواع الاحتجاج يعد بمثابة حرب ضد المدينة . فظلت المدينة في حالة مد وجذر على مدار تاريخها بين النصارى والمسلمين حيناً وبين المسلمين أنفسهم حيناً آخر، فلم يعترف أردون بيابره مدينة إسلامية تتبع مملكة المسلمين وحدودها في الغرب ، بل استنكر ذلك تماماً، وقام بارتكاب مجموعة جرائم ضد المسلمين على حدود مدينة يابرة، كما قام باختراقها ودخولها؛ احتجاجاً ورفضاً للواقع ومحاولة لتغييره . وفى هذا الصدد لابد من عمل دراسة لشخصية أردون بن أذفونش الثاني "أردونيو الثاني" (٢) Ordono II de Leon (٣٠١-

(١) لتعريف الثغر والآراء حوله انظر: سحر سالم، مظاهر الحضارة في بطليوس الإسلامية غير منشورة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، الاسكندرية،١٩٨٧م، ص٥٦٧-٥٦٨.

(٢) ملك جليقية منذ عام ٩١٠م، وملك ليون وجليقية من عام ٩١٤م وحتى وفات، وهو الابن الثاني للملك الفونسو الثالث من زوجته خمينا النافارية. وخلفه راميرو الثانى Ramiro II فى سنة ٩٣١م. وكان ملكاً نشطاً إذ إنه انتهز فرصة الاضطرابات التي تسود الأندلس، =وأغار على الثغور الإسلامية متحالفاً مع مملكة نبرة عدة مرات، وما لبث أن توفى، وما لبث أن توفى وخلفه أخوه فرويلا الثاني .

٣١٢هـ/٩١٤-٩٢٤م) ملك الجلالقة، والتعرف على نشأته لما للنشأة من تأثير قوى وخطير على حروبه مع المسلمين وطريقته العنيفة الخالية من أي رحمة، فلم يكن هجومه وغزوه ليابرة ليقارن بأي غزو آخر؛ فقد كان عبارة عن جريمة متكاملة الأركان . فقد عهد والده الفونسو الثالث الملقب (٨٨٦-٩١٠م) إلى بنى موسى بن قسى أصحاب سرقسطة بتنشئته فعاش في كنفهم حتى سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م. واختار والده بنى قسى تحديداً لما عُرف عنهم من قدرتهم على تغيير ولائهم وتحالفاتهم حسب مصالحهم الشخصية فأراد والده أن يتطبع بطباعهم وأن يقلدهم في ذلك [١]؛ مما سبق يتجلى لنا أن الفونسو الثالث عندما أراد أنُ ينشأ ولده ويجعل منه داهية حرب اختار المولدين من المسلمين لعلمه جيدًا بمكرهم ودهائهم السياسي وقدرتهم البارعة في الحروب، وهذا كله من أجل الاستعداد لمحاربة المسلمين مستقبلاً. فما تعرضت له يابرة يعتبر محنة إسلامية من أكثر المحن في تاريخ الأندلس إيلاماً وتأثيراً في النفوس .

قامت الممالك المسيحية بقيادة الطاغية أردون بن أذفونش بالوحشية والمغالاة في سفك الدماء بارتكاب أبشع وأشد الجرائم بمدينة يابرة لعدة أسباب منها ما كان بدافع الانتقام من المسلمين بالأندلس، ومنها ما كان تطلعاً منه لفرض سيطرته وإحكام قبضته على هذه المنطقة التي كان يعتبرها حقاً من حقوقه؛ ولذلك كان يعمل جاهداً من أجل استرداده من يد المسلمين ، ولأنه سيتمكن من خلالها من السيطرة على باقي مدن الأندلس، وهو ما يعرف بالنزاع الموضعي أو المكاني ،

Juan Gil Fernandez,Jose L.Moralejo ,Juan Ignacio Ruiz de ,Cronicas Asturianas,Universidad de Oviedola Pena ,1985,P.246-323.

(١) أحمد بن عمر بن أنس العذرى، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهوانى، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٦٥،ص٢١-٣١-١٥٧؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس،ج١، ص٣٠٥.

كما كانت حاجته للمال والغنائم دافعاً له وراء كل ذلك، وهو ما يعرف بالنزاع حول الموارد الاقتصادية؛ ولذلك استنكر هذا الحق على المسلمين وتنازع على حدود يابرة مما يُعرف بالنزاع الإقليمي Territorial Dispute، والذى يهدف إلى تغيير موضع الحد السياسي. فقد كان غرض أردون الثاني تدمير هذه المدينة تدميراً شاملاً حتى لا يستطيع المسلمون بالأندلس إعمارها مجدداً؛ حيث إنها منطقة نائية ويصعب استيطانها، وهنا تكون المدينة فارغة من السكان [1] . وهذا كله يرجع لمدى خطورة هذه المدينة وسكانِها المسلمين على الممالك المسيحية بالغرب فهي مدينة مأهولة بالسكان المسلمين، وسوف ينجح سكانها القاطنون بها في إبطال أي محاولة من قبل الممالك المسيحية للسيطرة على أي مدينة بغرب الأندلس، فهي شوكة قوية في ظهورهم .

وعندما يتمكن أردون من قتل وتهجير وإخلاء المدينة من سكانها تسنح له الفرصة له ليقوم بنقل السكان المسيحيين إليها والاستحواذ عليها، وبذلك تصبح مركزاً وقاعدة عسكرية خطيرة له في قلب الأراضي الإسلامية؛ لأجل ذلك قام بارتكاب كل ما هو فاسد، والذى يعتبر من وجهة نظره حقاً مشروعاً ، فقام بمخالفة العرف والقانون الذى يحكم سلوك المدينة والقوات المتحاربة (المسيحيين والمسلمين) والأفراد في حالة الحرب، وقد نالت هذه المخالفات من الأفراد والممتلكات أيضاً؛ لذلك يمكن أن يطلق على ما قام به أردون الثاني جريمة حرب؛ لتوافر كل أركان الجريمة، وهى الركن الدولي، والذى يعنى التخطيط من جانب أردون للسيطرة على يابرة ، والركن المادي، وهو قيام أردون بارتكاب معظم الأفعال التي يحظُرها ويمنعها قانون الحرب، كالقتل، والتعذيب، والمعاملة غير الإنسانية والتدمير .....الخ .

(١) فائزة حمزة عباس عثمان الصوفى، التحديات الخارجية للأندلس في عصر الإمارة ١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م، الطبعة الأولى ،٢٠١٤، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان ، ص١٠٢-١٠٣.

قام أردون الثاني في يوم ١٣ محرم سنة ٣٠١هـ الموافق ٩ أغسطس سنة ٩١٣م بالتوجه ناحية غرب الأندلس، وقام برحلة استكشافية استطلاعية لتفقد مواطن القوى والضعف للحدود الغربية للمدن ، فلاحظ بعض الضعف في وسائل الدفاع عنها؛ ولذلك اختار يابرة مسرحاً لأفعاله الوحشية ومذبحته الدموية. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ما دوافع أردون الثاني لاختيار مدينة يابرة بالذات دون غيرها من مدن غرب الأندلس ليقيم بها هذه المذبحة؟ أولاً : لأن أردون أثبت لنا أنه داهية حرب يتمتع ببصيرة حربية وعسكرية نافذة ، فهو من النوع الذى يفكر جيداً قبل الإقدام على خطوة كهذه ،فقد نظر بتمعن وتركيز إلى مدن هذه المنطقة فوجدها كلها متطرفة ونائية، فدقق النظر أكثر، فوجد أن يابرة مختلفة عن كل المدن المجاورة لها في شيء خطير، وهو عدد السكان، فوجد عدد سكانها كبيراً بالرغم من أنها تشغل رقعة صغيرة من الأرض، ولذلك أراد إبادتهم جميعًا حتى لا يستطيع المسلمون استيطانها مرة أخرى لبعد هذه المدينة عن مركز الخلافة، وصعوبة المناخ هناك وعدم تماشيه مع طبيعة مناخ بلاد المسلمين، وفى هذه الحالة تأتى الفرصة الذهبية لأردون بتوطين المدينة بالمسيحيين وفرض سيطرته عليها – وما ذلك إلا لكونها مدينة ذات موقع استراتيجي حصين يُمكنه من قلب الأندلس وجنوبها . فكان معه من الخيل والرجال والرماة حوالى ثلاثين ألفاً ، وكان عامل المدينة حينئذٍ مروان بن عبد الملك في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر) (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) [١]، واختار النصارى هذا التوقيت بالذات للدخول ليابرة لحرص الناصر على أراضي المسلمين والقيام باسترجاعها من حوزتهم ، وتكريس كل جهوده لقمع الثورات وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة؛ حيث كانوا يرون في القائمين بهذه الفتن والثورات عاملاً مهماً ومساعداً لهم – النصارى– للتدخل في

(١) Cronica De Al-Nasir : P.43.

مدن وشؤون المسلمين، وهذ ما لا يرغب فيه النصارى لكونه ضد أهوائهم ورغباتهم ولذلك وجدوا – النصارى– أن المخرج لهم من كل هذه الأمور الدخول ليابرة كبداية لتحقيق هدفهم، ظل أردون ببايرة ثلاث عشرة ليلة يطبق ويُوقع كل أنواع المحرمات بها دون رحمة منه، فيقول صاحب حولية عبد الرحمن الناصر "فنزل عليهم يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم منها"(١) .

قام أردون بمحاصرة حدود يابرة وكبدها ذلك خسائر فادحة لها، فقد نزل بالقرب من سور يابرة" وبالتحديد في مكان ما في سورها" متحسساً عورة هذا المكان، فوجده متطامناً (منخفضاً) ليس له ستارة ولا شرفات بأعلاه ، كما وجد خارج السور كومًا مرتفعًا من زبول– قمامة – أهل المدينة قد اعتادوا إلقاءها خارجه، وعلى مدار الأيام كادت تساوى في بعض الأماكن أعلاه (وهذا خطأ بشرى بسيط تسبب بمرور الوقت في تدمير مدينة)، وهنا تبين لأردون عورة المكان وعلى الفور قام بتطويق المدينة من جميع جهاتها(٢) .

مما سبق يتضح انصراف أهل يابرة المسلمين عن النظر إلى خط دفاعهم الأول معتمدين على قوته وحصانته التي تعودوها دون الالتفات إلى ما قد يعتريه من بعض العورات، الأمر الذى جعل من حصنهم نقطة ضعف لهم وثغرة لتملص العدو إليهم. فكان آخر شيء يفكرون فيه هو النظر في تحصينات المدينة وخاصة أسوارها لعلمهم جيداً بقوة حصونها التي تعود للعصر الروماني مما ترتب على ذلك

---

(١) Cronica De Al-Nasi : P.43.

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا، ص٩٣-٩٤، عنان، دولة الاسلام بالاندلس، ج٢،ص٣٩٢-٣٩٣، سحر سالم، تاريخ بطليوس، ج١، ص٣٠٥-٣٠٩؛

Muzaffar Husain Syed, Syed Saud Akhtar, B D Usman: Concise History of Islam, India,2011,P.131.

Alexander Mikaberidze; Conflict and Conquest in the Islamic World: A al Encyclopedia,2011,p.13.

من حدوث بعض الإهمال الذى جعل جزء من هذا السور يفقد بعض مميزاته الدفاعية ومما يدلل على ذلك قيام أردون بالنزول عند سور يابرة وقيامه بالبحث بدقة عن عيب خطير في هذا السور يستطيع من خلاله الدخول للمدينة، وبالفعل وجد مأربه وحصل على مراده، ومما زاد الأمر سوءاً قيام أهل المدينة بإلقاء القمامة بجانب هذا المكان المنخفض مما يسهل عملية اختراق المدينة، وبالفعل تم ذلك.

وقد تسبب تطويق أردون ليابرة في خوف وفزع أهلها وتجويعهم وعدم قيامهم بممارسة حياتهم بحرية داخلها وخارجها . ثم استعد لمهاجمتها بقواته من كل اتجاه وهنا تحولت أهدافه من الإغارة عليها إلى فتحها، واستعد لقتال أهلها، وكان الأهالي يدافعون عنها من فوق الأسوار ، وكان أردون يستخدم كل الوسائل والأدوات في هجومه على المدينة، فجمع كل فرسانه، وأمرهم بالنزول عن خيولهم، والاشتراك في القتال حتى عِلية القوم، ومنهم القواميس والأباترة، ولم يستثن من رجاله سوى خمسة أفراد من مشيخة أهل بيته [١].

مما سبق يتضح لنا أن المطالع لتاريخ المدينة قد يعتريه الإحساس بضعفها واضمحلال حصانتها، لكن سرعان ما يرى الصورة الحقيقية من خلال استدعاء أردون لكل من هم تحت إمرته للاشتراك في القتال.

وبدأ الهجوم على أهالي يابرة المدافعين عنها من أعلى الأسوار، وقام أردون باستخدام النبال والسهام الخارقة التي لم يستطع أحد النجاة منها ، وعندما اشتد القتال على أهالي المدينة، وتكاثرت النبال عليهم وعجزوا عن الصمود، وأصبحوا هدفاً للرماة تركوا الأسوار مكشوفة، وتراجعوا عنها إلى داخل المدينة؛ فأصبح الميدان خالياً لأردون وقواته التي لم تُضِع الفرصة، ولم تتردد لكى تهجم على المدينة، وفعلاً تسلقوا إلى أعلى السور عن طريق كوم من القمامة، واستطاعوا

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق شالميتا، ص٩٣-٩٤.

بفضل هذا الكوم فتح ثغرة في السور، ومن هذه الفتحة مباشرة إلى قلب المدينة، فلم يشعر أهل المدينة إلا بدخولهم عليهم من جميع نواحيها وصاروا معهم يعيشون بمكان واحد، عندئذ أسرع المسلمون للاحتماء داخل حصونهم "القلعة وقصبة المدينة"، وسرعان ما أعادوا تنظيم صفوفهم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد حتى نجحوا في إخراجهم من داخلها، وعادوا إلى أعلى السور مرة أخرى للدفاع عن مدينتهم، واستطاعوا قتل عدد كبير من قوات أردون ، وهنا ثار غضب النصارى وانزعاجهم بقيام المسلمين بطردهم من حدود يابرة بعد فتحهم لها ، وقيامهم بالتصدي لهم وقتل عدد كبير منهم، كل هذا كان له عميق الأثر في نفس أردون الذى قرر الرد بقوة وعنف، فأعاد ترتيب صفوفه مرة أخرى، وكر كرة رجل واحد، فأوقع بالمسلمين هزيمة نكراء أشد أثراً على المسلمين من الهزيمة الأولى، وبذلك تراجعت قوات المسلمين عن سور المدينة، وقامت قوات أردون باقتحامها من جديد والالتحام مع أهالي المدينة في معركة عنيفة، قتل فيها عدد كبير من الجانبين في بداية الأمر حتى دارت الدائرة على المسلمين بقتل أردون عددًا كبيرًا منهم(١).

كما عمل النصارى على إرغام المسلمين بترك أماكنهم بموضع آخر شرق المدينة، وهنا كانت الجريمة الكبرى ؛ فقد قاموا بمحاصرة أهل يابرة بهذا المكان الضيق، ولم يستطع المسلمون الدفاع عن أنفسهم لصعوبة تحركهم ولزيادة عددهم ولضيق المكان ، وهنا كانت المذبحة حيث قامت قوات أردون بإبادتهم وقتلهم عن

---

(١)

Folio 18 del Fragmentario de la Cronica anonima de al Nasir ,Texto Arabe,9,p 44-45.

=Roberto Marín Guzmán: Sociedad, política y protesta popular en la España musulmana, Editorial Universidad de Costa Rica, 2006,P.437.

آخرهم ، واستباحة المدينة ونهبها، ولم ينكر المؤرخون الأسبان أنفُسهم ذلك، فقالوا عن أردونOrdono II De Saquear esta cidad ، وسبوا النساء والأطفال والأموال عدا عشرة أفراد من أهل يابرة استطاعوا الفرار من مذابح النصارى؛ حيث لجأوا إلى إحدى المنشآت الأثرية(المباني القديمة) وارتقوا إلى أعلاها وتحصنوا بداخلها وتحكموا في الدفاع عن أنفسهم حتى جاء الليل، واتخذوا من ظلام الليل ستاراً للخروج من يابرة إلى باجة، ولم ينج سواهم من أهل المدينة جميعاً فقد أطلق أحد المؤرخين الإسبان على هذه المذبحة غارة incursion على مدينة يابرة، واعتبرها مأساة للمسلمين بالمدينة [١]. ومما سبق يتضح لنا أن المؤرخين الإسبان أنفسهم لم يتحملوا صعوبة الموقف وهول المذبحة، فدونوها في مؤلفاتهم دون تزييف وتحريف لحقيقتها.

ولم تتوقف جرائم أردون عند هذا الحد ، فقد استكمل جرائمه بذبح عدد من الأهالي الذين لاذوا بالمساجد لحماية أنفسهم لعلمهم بتحريم القتال داخلها، ولكن النصارى لم يراعوا حرمة المساجد فقتلوا الأهالي بداخل المسجد، ومن بينهم عامل المدينة مروان بن عبد الملك الذى استشهد بالمسجد المنسوب له، وسبى جميع أهله وولده. وهنا بلغ مجموع القتلى داخل المدينة حوالى سبعمائة رجل، وسبى من النساء والأطفال ما يزيد عن أربعة آلاف ، فذكر المؤرخون أنه لم تدر بالأندلس دائرة على الإسلام من قبل العدو أشنع من هذه الدائرة ولا أفظع منها . ومما يدلل

---

(١)

Folio 18 del Fragmentario de la Cronica anonima de al Nasir ,Texto Arabe,9,p 44-45.

Roberto Marín Guzmán: Sociedad, política y protesta popular en la España musulmana, Editorial Universidad de Costa Rica, 2006,P.437.

على هول هذه المذبحة، أن قاصد المدينة بعد فترة من هذه المذبحة عندما يأتي إلى الموضع الذى ضُم فيه المسلمون ولم يجدوا منفذاً أمامهم عند الإحاطة بهم ، فينظر إلى المكان الذى احتموا فيه وذبحوا متراكمين فوق بعضهم بعضًا الرجال والنساء والأطفال ، وتراكمت الجثث طبقة فوق طبقة حتى وصلوا إلى أعلى حائط السور من كثرة الجثث والقتلى فيرى منظراً مُوحشاً شنيعاً وهولاً هائلاً فظيعاً، وذلك الموضع يعرف بالأتراش Fretos (المضايق) لضيق المكان ، وترك الطاغية أردون المدينة بعد أن جعلها خراباً وعاد إلى جليقية ثاني يوم دخولها [1]. في هذا دلالة كبرى على قسوة قلبه وتأصل الاجرام في نفسه. وكان اعتقاد اردون في إبادة يابرة وإخفاء معالمها نافعًا من كونها مصدر قوة لأعدائه المسلمين، ونقطة ضعف بالنسبة له، من هنا كانت فكرة القضاء عليها.

(١) مدونة عبد الرحمن الناصر، ص٤٥-٤٦؛ ابن حيان ، المقتبس ،تحقيق شالميتا،ص٩٥؛ عنان، الخلافة الأموية والدولة العامرية،ص٣٩٣؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس، ج١، ص٣٠٦.

آثار جرائم أردون على حدود مدينة يابرة :-

دبّ الخوف والفزع في قلوب سائر مدن الغرب الأندلسي لهذا الحادث الجلل على أهل يابرة؛ الأمر الذي أثر سلباً على حياتهم، فأخذوا على الفور يعدون في إصلاح أسوارهم والنظر في عوراتها وشد معاقلهم خوفاً مما حدث لإخوانهم أهل يابرة(١).

وأما بالنسبة لمدينة يابرة فقد عمل المسلمون على تدميرها وهدم أبراجها وأسوارها حتى ألصقوها بالأرض، فبقيت خالية بقية سنة٣٠١هـ ، كأن لم يكن لها وجود حتى جاء عبد الله بن محمد الجليقى(٢)وابتناها سنة ٣٠٢هـ بمساعدة حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسُرُنباقى (٣) وقومه وابتنى لهم سورها، وأجمع القوم على معاونة السرنباقى والأخذ بيده، وقالوا: " هذه مدينة يابرة بقربنا ، قد صارت منذ زال عنها العدو ضرراً على أطرافنا ،فلْنسكِنها هذا الرجل وقومه ولنُعينهم على إيطانها وعمارتها، فإذا سكنوها استرحنا من غمها، وصارت مع ذلك في عداد أعمالنا"(٤) . من هنا تظهر أهمية هذه المدينة حدودياً ؛ حيث إنها منطلق لكل المدن حولها، وقد عدها الأهالي في المدن حولها خطراً داهماً يهدد حدودهم وأطراف مدنهم

---

(١) ابن حيان، المقتبس ،تحقيق شالميتا ، ص٩٦-١٠٧.

(٢) عبد الرحمن بن مروان الجليقى : ينسب إلى أسرة من المولدين قدمت من شمالي البرتغال وبالتحديد من جليقية . ابن عذارى ،البيان المغرب، ج٢، ص٨٣؛ ابن الآبار، الحلة السيراء ،ج٢، ص٣٧٦؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس، ج١،ص٢٢٣.

(٣) سعدون السرنباقى : هو سعدون بن غار، ويقال: ابن نمار، ويقال أيضاً: سعدون بن فتح السرنباقى، وهو صديق ابن مروان الجليقى الذى ناصره في العديد من المواقف.
ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود على مكى، ص٣٤٩، حاشية رقم ٧؛ سحر سالم، المرجع السابق، ج١، ص٢٧٩.

(٤) ابن حيان ، نفسه .

إذا لم يأمنوا جانب من يقوم عليها. الأمر الذى يثبت كون يابرة للمدن المجاورة صمام الأمن والأمان.

عندئذٍ رحل إليها السرنباقى بأهله وقومه وأهل باجة وأكشونبه، وكانوا نحو خمسين رجلاً، وشرعوا في بناء ما تهدم من سورها وسد ثغراتها وتقوية أركانها ، وقام ابن مروان الجليقى بتسليم يابرة إلى السرنباقى، وقال له: " هذه لك ولقومك، فانزل بمن معك على اسم الله " وهنا شكره السرنباقى، ونزل يابرة بمن معه، وأقام ابن مروان معه فيها أياماً ثم انصرف عنه، ثم لحق به عدد كبير من الفارين من مذبحة أردون من المدن المجاورة لها، فصلح بذلك حال يابرة وحال أهلها، وتزايدت عمارتها وغلاتها، فكان ذلك سبباً في سُكناها وعمارتها إلى اليوم [١].

لم تنته جرائم أردون الثاني عند هذا الحد؛ فقد سار في قواته إلى منطقة غرب الأندلس واخترق حدود المدن والحصون المجاورة ليابرة وعاث فيها قتلاً وسبياً لسكانها، واستيلاءً على بعض قلاعها حتى قصد مدينة بطليوس، فارتاع أهلها، واسترضوه بالمال والحلى، وعبر النصارى نهر دويرة إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبي دون أن يعترضهم أحد [٢].

مما سبق يتضح لنا الدور الحيوي الذى تلعبه يابرة في المنطقة، فبمجرد أن وضع أردون قبضته عليها انفتح الطريق أمامه، وأصبحت مهمته أسهل، وزالت العقبة التي كانت تعوق تحركه، وبدأ ينتقل من مدينة إلى أخرى بسرعة ويسر .

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٩٦-١٠٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس، لوحة ٦٦.

رد فعل عبد الرحمن الناصر على كل هذه الاحتجاجات والنزاعات الحدودية :-

قام الناصر في سنة ٣٠٢هـ/٩١٦م بتجهيز جيش قوى بقيادة أحمد محمد بن أبى عبدة [١]متجهاً إلى أراضي ليون، وعاث فيها فساداً، وسبى وغنم مغانم كثيرة، واستطاع هزيمة النصارى هزيمة ساحقة [٢].

فكان رد فعل أردون الثاني في العام التالي أشد انتقاماً لهذه الأحداث السابقة، فقد عاث في منطقة طلبيرة Talavera غربي طليطلة فساداً، عندئذ غضب المسلمون غضباً شديداً، وتضرعوا إلى الناصر لإنقاذهم من هذا العدوان الصارخ، فقام الناصر بإرسال قائده أحمد بن أبى عبدة إلى أرض النصارى بجيش ضخم من المتطوعين خوفاً على أرضهم، وانضم له عدد كبير عند دخوله إلى حدود النصارى، واخترق المسلمون أراضي قشتالة حتى وصلوا لقلعة شنت اشتبين الواقعة على نهر التاجة Castro Moros San Esteban ، ولم يختاروا أي مكان، فهي من أمنع قلاع النصارى على الحدود، وردوا على النصارى بنفس جرائمهم، فقد اختاروا مناطق حدودية مثل المناطق التي اخترقها النصارى على المسلمين؛ فضربوا بحصارهم حولها، وكادت أن تسقط لولا هرع أردون إلى إنقاذها، فأنقذهم، وهزم المسلمون هزيمة ساحقة سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م حتى امتلأت السهول والغابات بقتلى المسلمين وأشلائهم، ولم تمض عدة أشهر حتى قام أردون الثاني بغزو الأراضي الإسلامية في منطقة الثغر الأعلى لما حققوه من انتصارات على المسلمين[٣].

---

(١) قائد عسكري ينتمى لموالي بنى أمية، وكانوا محل ثقة المسلمين، وشغلوا العديد من المناصب في الأندلس. ابن عذارى، البيان المغرب،ج٢،ص١٧٦.

(٢) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، الجزء الرابع، دار الفكر، ٢٠٠٠ ، بيروت، ص١٨١.

(٣) ابن حيان، المقتبس، لوحة ٦٦.

وكان هذا كله أول احتجاج ورفض من قبل أردون، وما لبث أن تحول إلى نزاع من قبل الممالك المسيحية جيران يابرة الشماليين ، ورغم أن أردون الثاني سعى بكل ما أوتى من قوة لضمّ هذه المدينة إلى حدود مملكته، وعمل جاهداً للاستيلاء عليها، مستخدماً فى سبيل ذلك كل أعمال العنف والتخريب والإرهاب التي آلت إلى الحرب مع أهالي يابرة؛ لكى يدخل تلك المدينة عنوة، ثم يضمها إلى أملاكه في ليون لكن باءت كل محاولاته بالفشل ؛ ولذلك اكتفى بما أقامه بها حتى لا تصبح مصدر قوة للمسلمين ولا مصدر ضعف للنصارى ،وعاد مسرعاً إلى ليون، وبقيت مدينة يابرة خراباً نحو عام؛ لإدراكه جيدًا بعدم قدرته على الاحتفاظ بها في هذا المحيط المعادي .

المحورالثاني :- مدينة يابرة وحدودها تحت الحكم المرابطي الموحدى حتى سقوطها في أيدى المماليك المسيحية.

أ- محاولات ضم حدود يابرة لدويلة بنى عباد عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م:-

لم تكن محاولات الاحتجاج والنزاع على حدود يابرة مقتصرة على النصارى وجيرانها الشماليين فقط، فقد كان هناك محاولات أخرى من قبل المسلمين وجيرانها بالجنوب .

كانت مملكة إشبيلية يحكمها بنو عباد التي تجاور مملكة بطليوس من الجنوب – ومدينة يابرة جزء مهم وحيوي من هذه المملكة – التي تفصلها عنها جبال الشارات "سيرامورينا" Sierra Morena [1] ويحكم هذه المنطقة بنو الأفطس

(١) هذا الجبل يأخذ من ظهر مدينة سالم Medinaceli إلى قرب مدينة قلمرية . وفى هذا الجبل من الغنم والبقر الكثير التي يضرب بها المثل في جميع بلاد الأندلس .

بقيادة أبى محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس "٤٣٧هـ/١٠٤٥م"(١) الذى كان يعمل جاهداً من أجل ضبط وإدارة المنطقة بمقدرة وبراعة، ولذلك كان يراقب بحرصٍ شديد تحركات جيرانه في الجنوب (وهم بنو عباد)، وفى الشرق (وهم بنو ذى النون حكام طليطلة) وفى الشمال (وهم مملكة ليون)، ولاحظ مدى نمو قوة جيرانه الجنوبيين في بداية حكمه للمنطقة، وكانت حجة بنى عباد في حروبهم مع المسلمين توسيع رقعة مملكة إشبيلية باعتبارهم الورثة الحقيقين لبنى أمية بالأندلس (٢).

الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥٢ ؛ ابن خلدون، المقدمة، المجلد الأول، ص٦٦؛ عبادة كحيلة، الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥م ، ص٣٧.

(١) هو عبد الله محمد بن مسلمة التجيبى أبو محمد المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس وأول من ولاها، أصله من فحص البلوط. خير الدين الزركلى ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الرابع، دار العلم بيروت، ص١٢١.

(٢) ابن عذارى المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وليفي بروفنسال، الجزء الثالث، ص٢٣٤-٢٣٥ ؛ أبى الحسن على بن بسام الشنترينى "ت٥٤٢هـ" ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص٣٨٦؛ محمد عبد الله عنان، دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ،ج٣، ص٨١-٨٥؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس، ص٤٠١؛ أزهر صادق كاظم مهدي التميمي، بنو الأفطس في بطليوس التاريخ السياسي والحضاري من (٤٢٢-٤٨٨هـ/١٠٣١-١٠٩٥م)،المنهل ،٢٠١٥،ص٤٩؛ شريفة محمد عمر دحمانى ، العلاقات =السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية فى جنوب الأندلس فى عصر ملوك الطوائف "القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي "،مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ص١٩٤.

وقد انصرف بنو الأفطس إلى تحسين شؤونهم الداخلية حفاظاً على حدود مملكتهم؛ ولذلك كانوا يرون في بنى عباد الخصم الأول لهم ، وبدأ الاحتكاك الفعلي بين بنى عباد وبنى الأفطس في عهد المظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس(٤٣٧هـ/ ١٠٤٥ م – ٤٤٥هـ/ ١٠٦٣م) [١] والذى كان يعمل جاهداً من أجل الدفاع عن الثغور، ولكن سرعان ما دارت الدائرة، وتحولت مقاليد الأمور؛ حيث جاءت الفرصة لبنى عباد على طبق من ذهب بهجوم بنى الأفطس على مدينة لبلة [٢] ، التي قام صاحبها بالاستغاثة وطلب العون من المعتضد بن عباد (٤٣٣-٤٦١هـ) [٣]، الذى لبى دعوته وأرسل على الفور قواته التي اشتبكت مع خيل ابن الأفطس فمزقتهم وأفنتهم . وعلى الفور جهز المعتضد بن عباد قوة، وضع على رأسها ولده اسماعيل ووزيره ابن سلام مستغلاً ضعف بنى الأفطس، للدخول إلى حدودهم وضمها إليهم فعبر نهر واد يانة Guadiana وتوغل في أراضي بنى الأفطس حتى حدود مدينة يابرة، ومن الجدير بالذكر أنه للمرة الأولى تُقدم قوات ابن عباد على التغلغل داخل مملكة بطليوس وانتزاع عدد من حصونها، ومما يزيد الأمر

(١) المظفر بن الأفطس: هو محمد بن عبد الله المظفر، فقد ألف المظفر الكتاب المظفر، نسبة إلي اسمه، فيقول المقري:" كان المظفر أديب ملوك عصره، غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، و التأليف الفائق، المترجم بالتذكرة، و المشتهر اسمه أيضا بالكتاب المظفري في خمسين مجلدا.
ابن بسام الشنترينى، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج ٣، ص٦٤٠؛المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص٢٠٩؛ انخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، صـ١١٨ .

(٢) مدينة لبلة مدينة أزلية ،وهى غرب قرطبة وشرق شلب وهى كثيرة الزيتون والثمار والأشجار ولها إقليم عظيم وهى جامعة لصنوف الخيرات. مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بُوباية، ص١٠٩.

(٣) أبو عمرو عباد بن اسماعيل الذى جري علي سنن أبيه في إيثار الإصلاح، وحسن التدبير، وبسط العدل مدة يسيرة وكان شهمًا صارمًا حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء . وتلقب بالمعتضد بالله.
ابن الآبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٣٩-٤٠؛ عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، صـ ١٥١.

صعوبة اتحاد كل من جيران يابرة الشرقيين، وهم بنو ذي النون أصحاب طليطلة مع بنى عباد، ولذلك كان المظفر يواجه قوتين من أكبر قوى ملوك الطوائف، وكانوا يداً واحدة، وهنا حشد ابن الأفطس قواته بعد أن جمع بقايا جيشه من كل بلد مستعيناً بقوة حليفه إسحاق البرزالى صاحب قرمونة Carmona [١].وولده المعز بالرغم من أن البرزالى قد نصح ابن الأفطس، وقال له: " لا تلقَهم، فلست تعرف بنحو من زحف نحوك، ونحن رأيناهم، وسمعنا بجمعهم بإشبيلية " فلم يسمع منه ومضى، والتقى الفريقان على مقربة من حدود يابرة ، فهزم ابن الأفطس وقتل ابن البرزالى المعز، كما قتل صاحب يابرة [٢]، ولجأ ابن الأفطس وبقية قواته إلى داخل يابرة ، ليتحصن بحصونها الداخلية، وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر من ثلاثة آلاف في عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م ، وقد أرسلت رؤوس أعداء بنى عباد في الخزانة المخصصة لهذا الغرض، ويرجع السبب في هزيمة بنى الأفطس إلى حشدهم قوة غير منظمة من أغمار[٣] لا خبرة لهم بقتال، جمعهم من البوادي، وأن حلفاءه البربر خذلوه، وفروا عند القتال [٤].

(١) قرمونة: مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية، وبينها وبين إستجة خمسة وأربعون ميلاً، وهي مدينة كبيرة قديمة، .الحميري، مصدر سابق، ص١٠٤؛ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص١٥٢؛ حمدي عبد المنعم، دولة بنى برزال فى قرمونة ،مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠م، ص١٠.

(٢) عبيد الله الحراز .

(٣) جمع غُمر ومعناه الرجل الذى لم يجرب الأمور ولم يكن لديه خبرة .

(٤) ابن عذارى المراكشي ،البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان و ليفي بروفنسال، الجزء الثالث،ص٢٣٤-٢٣٥؛ ابى الحسن على بن بسام الشنترينى "ت٥٤٢هـ" ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس، القسم الأول ، المجلد الأول،ص٣٨٦؛ محمد عبد الله عنان ،دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح

مما سبق يتضح لنا أن يابرة كانت مطمعاً للجميع نظراً لأهميتها الحدودية؛ الأمر الذى يعنى أن السيطرة عليها لسد الثغور وتأمين الحدود. وأن توغل بنى عباد داخل يابرة كان محاولة لإبراز القوة والبعث برسالة لجيرانهم المسلمين مفادها أننا متى أردنا الاستيلاء على يابرة وضمها لحدودنا لن تحولوا بيننا وبين مُرادنا، خاصة بعد انتصار بنى عباد على بنى الأفطس، وكان من السهل عليهم ضمها لحدودهم . كما يتضح لنا أن أي محاولة نزاع على يابرة لابد أن تنتهى بمذبحة شنيعة؛ مما يدلل على استماتة أهل يابرة في الدفاع عنها واستماتة القادمين في الحصول عليها مما يبرز رفعة هذه المدينة وعلو شأنها ومكانتها الجغرافية .

ولم يكتف المعتضد بما فعله ببنى الأفطس دفاعاً عن يابرة، وما زالت دماء المسلمين في يابرة لم تجف، ولم يتنفس ابن الأفطس من هول هزيمته وصدمته فيها ، فما لبث المعتضد أن انفتح الطريق أمامه فجهز على الفور جيشه، وعاث في هذه الأراضي قتلاً وتشريداً ونهباً وحرقاً في المزارع والأراضي، مما أدى إلى نضوب المواد الاقتصادية فعمت المجاعة في البلاد حيث شملت كافة أنحاء

المرابطي ،ج٣، ص٨١-٨٥؛ سحر سالم ، تاريخ بطليوس ،ص٤٠١؛ أزهر صادق كاظم مهدي التميمي،بنو الأفطس في بطليوس التاريخ السياسي والحضاري من (٤٢٢-٤٨٨هـ/١٠٣١-١٠٩٥م)،المنهل ،٢٠١٥،ص٤٩؛ شريفة محمد عمر دحمانى ، العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية فى جنوب الأندلس فى عصر ملوك الطوائف "القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي "،مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ،ص١٩٤.

المنطقة. ولم يستطع ابن الأفطس عمل شيء تجاه هذه الكارثة التي حلت بالبلاد سوى الاعتصام بحاضرته حتى توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م [١].

ومن هنا نجد أن يابرة وحدها لم تكن مطمعاً لذاتها وحسب، بل يزيد على ذلك كونها نقطة انطلاق ومعبراً هاماً لكثير من الفتوحات؛ حيث كانت نواة ومركزاً هاماً لهذه المنطقة .

وتولى الحُكم من بعده المنصور يحيي بن محمد بن الأفطس (٤٦٠هـ-١٠٦٧م) [٢] حيث كان المظفر قد قسم بلاده قبل وفاته بين ولديه يحيى الذى تلقب بالمنصور وبين عمر المتوكل [٣]والذى عينه والده عاملاً على مدينة يابرة التي استقل بها، وبذلك انقسمت البلاد إلى قسمين بطليوس وما حولها من الإمارات الشرقية بيد يحيي، أما يابرة والإمارات الغربية فكانت بيد عمر المتوكل ، ومن هنا بدأ النزاع الداخلي داخل مملكة بطليوس فما كاد يحيى المنصور يبدأ حكمه حتى ثار عليه أخوه المتوكل الذى كان يرى نفسه أحق بالملك من أخيه يحيى، وفى سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م نشب الخلاف بين الأخوين وبلغ ذروته واستفحل، والخلاف بين الأخوين كان من الأمور الشائعة في هذا الوقت، وكأنه نزاع على مناطق نفوذ وحدود بين الأخوين، فاستغل الفونسو السادس ملك قشتالة وليون Alfonso VI هذا الخلاف الذى كان في مصلحته، فبدأ يطالب يحيى صاحب بطليوس وحليفه

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٣٨٨؛ ا يناس محمد البهيجى ،تاريخ دولة الأندلس، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان ،٢٠١٦،ص٢٤٩؛ أزهر صادق كاظم مهدي، المرجع السابق، ص٥٠-٥١.

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ثالث حكام بنى الأفطس وتوفى عام ٤٦٤هـ.ابن الآبار، الحلة السيراء ، ج٢، ص٩٧.

(٣) المتوكل عمر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبى بن الأفطس. ابن الآبار، المصدر السابق ،ج٢،ص٩٦.

المظفر بزيادة الإتاوة السنوية التي كان يدفعها والده، فاعتذر يحيى بعدم قدرته على تدبير ذلك القدر من المال، فأخذ الفونسو يشن سلسلة من الهجمات على غرب الأندلس، عندئذ عمت الفوضى في يابرة وغيرها من المدن، وأصبحت البلاد ممزقة ومنقسمة إلى فئتين فئة مع يحيى المنصور، وفئة مع عمر المتوكل، ولما كان لهذه النزاعات وتلك الخلافات من تأثير كبير في تصدع كيان الدولة وتفتر بُنيانها ، فقد حصل الفونسو على مبتغاه وحقق مُراده من بلاد المسلمين وأموالهم وظل النزاع مستمراً بين الأخويين بضعة أعوام حيث تفاقم الأمر بينهما فلجأ يحيى المنصور إلى معاونة المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة بينما لجأ عمر المتوكل إلى معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية .ومما يثير الدهشة ويدعو للاستغراب تحالف المتوكل مع المعتمد والد أعداء بنى الأفطس لكن المصالح الشخصية هي التي كانت تتحكم بهذه العلاقات، وأن أمراء الطوائف لم يبالوا في وضع أيديهم بيد أعدائهم وخصومهم؛ لأن همهم الوحيد الحفاظ على عروشهم وأملاكهم مهما تكن الوسائل والأساليب. ومما يدلل أيضاً على مدى أهمية يابرة استخدامه كل السبل والطرق المشروعة وغير المشروعة للحفاظ عليها . فاشتدت الفتنة بين الأخوين وكادت تعصف وتفتك بهم وتدمر كل شيء لولا أن توفى يحيى المنصور فجأة في عام ٤٦٤هـ/١٠٧١م وبذلك خمدت الفتنة واستوثق الأمر لعمر بموت أخيه بعد منافسة طويلة بينهما، وترتب على هذا النزاع إقدام المتوكل على سك عملات باسمه .وبعدها دخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع وتلقب بالمتوكل على الله، وعين ابنه العباس حاكماً على يابرة [١].

(١) أبى القاسم محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك المالقى الغرناطي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ص٨٧؛ فؤاد صالح السيد، معجم السياسيين المثقفين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية، بيروت ،ص٥١٣؛ أزهر

وخلاصة القول أن مدينة يابرة عاشت حقبة من النزاعات والصراعات الداخلية بين الأخويين الأمر الذي أدى إلى ضعف القوى الدافعة والحاكمة للمنطقة وتدخل القوى المعادية في شؤون البلاد، فقد دخل حاكم يابرة في صراع مع أخيه من أجل ضمها، وما بعدها من مدن لأملاكه، مما يدل على مدى قوة نفوذ صاحب يابرة، وبذلك نجد أن النزاع الذى عاشت فيه يابرة هذه المرة يختلف عن أي نزاع آخر، وذلك لأن من يملك يابرة يريد أن يضم لها باقي الإمارات، وليس العكس كما هو معتاد؛ ولذلك انتهى الأمر بينهما بصراع شديد كان النصر فيه حليف صاحب يابرة بموت أخيه.

يابرة تحت حكم المرابطين(٤٨٤-٥٢٠هـ/١٠٩٢-١١٣٤م):-

ظلت مدينة يابرة تحت حكم بنى الأفطس حتى دخل المرابطون الأندلس وانتقلت تبعيتها وحكوماتها وإدارتها إلى المرابطين، ويرجع ذلك إلى هزيمة عمر المتوكل بن الأفطس وأولاده [١]وجيشهما أمام المرابطين إلى انحياز معظم غرب الأندلس للمرابطين، وهذا لتسليم عمر المتوكل ثلاث مدن من أهم مدن المنطقة – الأشبونة وشنترين وشنترة– لألفونسو السادس، وانتهى الأمر بقتلهما[٢].

صادق كاظم مهدي، المرجع السابق، ص٦٣؛ سحر سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي ، الجزء الثاني ، ص١١-١٥.

(١) فقد قبض المرابطون بقيادة سير بن أبى بكر على المتوكل وابنيه الفضل والعباس، وقتلا بالقرب من بطليوس، وقد أنشدهما الوزير الكاتب أبو محمد بن عبدون

الدهر يفجع بَعد العين بالأثرِ فما البكاء على الأشباح والصور

ابن الآبار، الحلة السيراء، ج٢، ص١٠٢.

(٢) لسان الدين بن الخطيب السلماني ، أعمال الأعمال في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ،تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدنية ،ص١٨٦؛سحر سالم ،تاريخ بطليوس،ج٢،ص١٣٠-١٤٩.

كما استغلت الممالك المسيحية انشغال المرابطين عن المنطقة الغربية؛ فسيطروا عليها، وتفاصيل ذلك أن الفونسو السادس عندما قام بتسليم المدن الثلاث في غرب الأندلس إلى صهره ريمون البورجونى [١] التي آلت بعد وفاته إلى هنري البورجونى [٢] الذى اعتبر نفسه مستقلاً بالبرتغال بعد وفاة الفونسو السادس وانتهز فرصة الإضرابات العنيفة التي كانت تمر بها الممالك المسيحية كما انتهز فرصة غفلة المرابطين عن الدفاع عن المنطقة الغربية نتيجة تركيزهم الحربى على منطقة طليطلة، فقام هنري بالسيطرة على يابرة وبعض مدن الغرب بقوة السلاح ، وهذه أول مرة يخسر فيها المسلمون يابرة بالرغم من المحاولات العديدة الفاشلة لضمها لحدودهم، وظلت فترة بأيدهم حتى علم المرابطون، فأعدوا حملة اقتحموا بها منطقة غرب الأندلس بقيادة سير بن أبى بكر [٣] أمير اشبيلية في عام ٥٠٤هـ/١١١٠م

(١) ريمون البرجونى وهو زوج ابنة الفونسو السادس الثانية دونيا أوراكة. سحر سالم ، تاريخ بطليوس ،ج٢،ص١٤٨.

(٢) يرجع نسب الكونت هنري إلى أمراء آل كابى الحاكمين فى فرنسا؛ حيث أنه حفيد روبرت الثاني ملك فرنسا (٩٩٦-١٠٣٤) وجده المباشر روبرت دوق بورجونيا (١٠٣٢-١٠٣٧) وإنه الابن الثاني من أربعة أبناء للدوق هنري، وهو أول أمير فى البرتغال، ومن هنرى وسلالته تكونت أول أسرة مالكة فى البرتغال فى العصور الوسطى، ويطلق المسلمون على هنرى اسم أريك، وعلى ابنه الفونسو اسم ابن أريك .
ابراهيم على طرخان، البرتغاليون فى غرب إفريقيا، ١٩٦٧م، ص٤٠؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص٦٤.

(٣) كان سير بن أبى بكر من أبرز زعماء لمتونة وقادتها، وهو قريب أمير المسلمين بالمصاهرة، ولقد ظهر نبوغه العسكري وبراعته الحربية في معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ ـ، وفى جواز أمير المسلمين إلى الأندلس، وعهده إليه بإخضاع ممالك الطوائف في غرب الأندلس ثقة بكفاءته وإخلاصه، وبالفعل افتتح قواعد الغرب حتى مدينة أشبونة، فحمى الثغور من اعتداءات النصارى، وانتصر على الفونسو السادس عندما حاول الهجوم على إشبيلية ، وتوفى عام

للحد من تطلعات هنري واندفاعاته الخطيرة واستطاع سير إعادة يابرة إلى حوزة المرابطين [١].

وفى ذلك يقول ابن أبى زرع " وفى سنة أربع وخمس مائة فتح الأمير سير بن أبى بكر شنترين وبطليوس وبرتقال ويافورة والأشبونة وجميع بلاد الغرب "، ومن هذا النص يتضح لنا أنه استرجع "يافورة" والتي يعنى بها يابرة في عام ٥٠٤هـ على يد سير بن أبى بكر أثناء حملته ضد بلاد النصارى كما استرجع المدن التي تنازل عنها بنو الأفطس بإرادتهم[٢].

ومجمل القول: أن مدينة يابرة قد شهدت أنواعاً كثيرة ومختلفة من النزاعات والصراعات عليها، منها ما هو على حدودها ويكون خارجها، ومنها ما هو بداخلها، كما كان منها ما هو ليوني، وما هو إسلامي بربري، ومنها ما هو برتغالي، ويحسب لأهلها قوة صمودهم وتحملهم وبسالتهم في الدفاع عنها. كما فيه أيضاً دلالة على التطلع بشغف من الممالك المسيحية إلى هذه المدينة، فما تكاد تقع في يد المسلمين حتى يهُب المسيحون إلى أخذها منهم، وما ذلك إلا لحيوية موقعها

٥٠٧هـ. أحمد بن خالد الناصري السلاوى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الأول، د.ت، ص١١١ ؛ أبو مروان عبدالملك ابن الكردبوس، نص تاريخ الاندلس، ص١٠٦؛ محمد عبد الله عنان، دولة الطوائف، ج ٣، ص ٣١٨؛حامد محمد خليفة، يوسف بن تاشفين، الطبعة الأولي، دار القلم، دمشق ، ٢٠٠٣م، ص١٠٥.

(١) لسان الدين بن الخطيب السلماني ، أعمال الأعمال في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدنية ،ص١٨٦؛سحر سالم، تاريخ بطليوس،ج٢،ص١٣٠-١٤٩.

(٢) أبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع الفاسي، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تصحيح كارل يوحن تورنبرغ ، ١٨٩٣ ، طبع في مدينة أوبسالة بدار الطباعة المدرسية ،ص١٠٥؛ سحر سالم ، المرجع السابق ،ص١٤٦.

واستراتيجيته، الأمر الذى يجعلها دائمًا مطمعاً وهدفاً لكل سياسي محنك على بصيرة بنقاط القوة والضعف.

وظلت يابرة بيد المرابطين حتى جاء عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م ، وهاجم المسيحيون بقيادة رود ريجو جنثالث [١] Rodrigo Gonzalez ، وحارب مسلمي غرب الأندلس، وحقق نجاحات كثيرة عليهم، وعندما علم قادة شلمنقة Salamanca [٢] النصارى بنبأ مهاجمة رودريجو وانتصاراته على المسلمين بعث ذلك الأمل في نفوسهم، وقوى عزيمتهم، وتجرأوا على مهاجمة مدينة يابرة بعدها بفترة قصيرة. وعندما علم أمير المسلمين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى (٤٠٠-٥٠٠هـ/١٠٠٩-١١٠٦م) بما حدث جمع جيشاً كبيراً، وبدأ يستعد للقتال حتى أقبل عام ٥٢٨هـ، ١١٣٣م ، وتوجه للقائهم، فالتحم الفريقان في معركة مزق فيها الجيش المسيحي، ولم ينج منه إلا نفر قليل وعاد تاشفين إلى قرطبة ظافراً [٣] ؛ معنى ذلك أن المسلمين فقدوا سيطرتهم على المدينة في الفترة من ٥٢٦هـ/ حتى عام ٥٢٨هـ ، وتحولت تبعية يابرة خلال هذين العامين من التبعية الإسلامية الى التبعية المسيحية بعدما بقيت في أيدى المرابطين حوالى اثنين وعشرين عامًا حتى استطاع المسلمون استرجاعها لحوزتهم بقيادة تاشفين، ورغم صمت المصادر عن

(١) قائد جيوش طليطلة والمكلف بقتال المسلمين في غرب الأندلس. ابن القطان المراكشي، نظم الجمان ،ص٢٢٥.

(٢) تقع على الضفة اليمنى لنهر تورمس أحد أفرع نهر دويرة كما أنها مركز موصلات مهم لمدن قشتالة الشمالية.

عنان، الآثار الأندلسية الباقية في الاندلس ،ص٣٥٧.

(٣) أبو محمد حسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى ابن القطان المراكشي ،نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ،حققه محمود على مكى ،دار الغرب الإسلامي ،ص٢٢٦-٢٢٧.

التحدث عن الاسباب الحقيقة وراء هجوم قادة شلمنقة على مدينة يابرة وغيرها من مدن الغرب في ذلك التاريخ الا أننا نجد ذلك ربما يرجع إلى وضع أعين وأنظار شلمنقة على المدينة من فترة سابقة طويلة وعندما أتت لها هذه الفرصة استغلتها على الفور واضعة في الاعتبار أن تكون هي الأخرى- شلمنقة - في حالة قوة حتى تستطيع تنفيذ ما تريده.

ويبدو أنه لم يكتب لمدينة يابرة أن تنعم بفترة من الهدوء كثيراً ، اذ سرعان ما احترقت بنيران النزاعات الداخلية، ففي أُخريات عصر دولة المرابطين تعددت الثورات، ومنها ثورة أبى القاسم بن قسى [١] ، وقد كثر أتباعه، وكثرت طائفته بغرب الأندلس، وبدأت الوفود والجماعات تتوافد عليه ،وتعلن تأييدها له، ومنهم صاحب يابرة أبو محمد سيدراي القيسى [٢] ، وأمثاله من أعيان الصقع الغربي، ولم تكن حكومة المرابطين غافلة عن هذا النشاط الخفي الذى يمارسه ابن قسى وصاحب يابرة وغيرهما، ورغم صمت المصادر عن تغيير موقف أهل يابرة وعدم ولائهم للمرابطين بعد حماية المدينة أكثر من مرة فربما يعود إلى أن سكان المدينة كان غالبيتهم من المولدين وأن صاحب الثورة كان أيضاً من المولدين؛ ولذلك نال

(١) أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى من شلب في جنوب البرتغال، وهو مولداً يرجع إلى أصل نصراني واشتغل في بداية حياته بالأعمال المخزنية ثم اعتنق الصوفية وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها ثم ألف طائفة من الكتب منها كتاب خلع النعلين، وقد باع ماله وتصدق بثمنه وساح في البلاد، وتسمى بالإمام .ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ج٢، ص١٩٧؛عنان، عصر المربطين، ص٣٠٧.

(٢) هو أبو محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسى رائد المريدين بمدينة يابرة، وزعيم ثورتها ضد المرابطين، وقد استطاع أن يطرد المرابطين من يابرة، ويستولى على زمام الأمور بها، ثم خرج بعد ذلك على طاعة ابن قسى زعيم الحركة واستولى على شلب ومارتلة، ولم يتمكن ابن قسى من القضاء على تمرده فاستعان بالموحدين الذين قضوا على هذه الحركة تماماً.
لمزيد من التفاصيل انظر ابن الآبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٢٠٣-٢٠٧.

تأييدهم، فقد مالوا لبنى جلدتهم، وربما يرجع إلى صاحب يابرة نفسه وأسبابه الخفية الذى أراد أن يكون له الكلمة الأولى والأخيرة بيابرة بعيداً عن نفوذ المرابطين رغبة منه في جعلها مركزاً له للسيطرة على باقي مدن الغرب، وهذا ما حاول تنفيذه فيما بعد ، وبدأ ثورته في عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م بإصدار أوامره بالاستيلاء والسيطرة على قلعة ميرتلة [١] ، ونجح في الاستيلاء عليها، ودخل ابن قسى إلى قصبتها وسط التهليل والتكبير وخاطب أعيان البلاد فاستجاب له كثيرون، كان أولهم أهل يابرة، ثم أهل شلب، وهذا اعتراف منهم بابن قسى وخلع طاعة المرابطين [٢].

وهنا بدأ جند يابرة [٣] ومعهم محمد بن عمر بن المنذر[٤] صاحب شلب في العمل على تنفيذ خطتهم، وافتتحوا باجة ثم اتصلا بابن قسى ووعداه بالطاعة، عندئذ منح ابن قسى باجة لصاحب يابرة وشلب وعلى الفور قام صاحب يابرة بانتزاع بطليوس وميرتلة من يد ابن قسى [٥] ، وأصبحت يابرة وباجة وشلب وبطليوس وميرتلة تحت حكومة ابن وزير [١].

---

(١) من مدائن كورة باجة في البرتغال الحالية من أمنع حصون غرب الأندلس. ابن الابار ، الحلة السيراء ،ج٢،ص١٩٨.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال،ص٢٤٩/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعي المعروف بابن الآبار "ت٦٥٨هـ"، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الجزء الثاني، دار المعارف، ص١٧٢.

(٣) بقيادة أحمد بن وزير شقيق سيدراي وخاله عبد الله بن الصميل .

(٤) ينتمى ابن المنذر إلى بيت قديم من بيوت المولدين بشلب، وكان من زعمائهما ونبهائها، وقد درس في إشبيلية، وبرع في الفقه والأدب، وولى خطة الشورى ببلده ثم تزهد واستقر برابطة على شاطئ البحر تعرف برابطة الريحانة واعتنق دعوة ابن قسى، وتوثقت صلاتهما. محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، ج٤،ص٣٠٨.

(٥) وهذا بسبب حدوث خلاف بين ابن قسى وابن وزير فقد حاول ابن وزير الاستيلاء على قرطبة قرطبة لصالح ابن قسى في غياب ابن المنذر، ففسر ابن قسى ذلك خطأ وبناءاً عليه غدر

وكان موقف ابن وزير يبلور لنا الوضع السياسي الذى كانت عليه مدينة يابرة، فقد كانت هذه الفترة عصيبة وانتقالية خطيرة. وأحداثها تدل دلالة واضحة على الوهن الذى أصاب المنطقة . وينذر بشدة من خطر كبير يقترب منها.

بابن وزير وخلعه عن يابرة وباجة وقبض عليه، ثم عاد وأطلق سراحه ورده إلى ولايته لكن ابن وزير لم ينس ذلك، وكره صديق الأمس، وحاول ابن قسى أن يتفاهم معه، ولكن دون جدوى، فأرسل ابن قسى ابن المنذر لمحاربة ابن وزير، فانهزم ابن المنذر، ووقع في الآسر، ثم زحف ابن وزير ناحية شلب واستولى عليها. ابن الآبار، الحلة السيراء ،ج٢،ص٢٠٧/سحر سالم، تاريخ بطليوس،ج٢،ص١٧٥-١٧٦.

(١) ابن الآبار، المصدر السابق،ج٢،ص٢٠٧/سحر سالم، المرجع السابق،ج٢،ص١٧٥-١٧٦.

ج- يابرة تحت حكم الموحدين حتى سقوطها في أيدى المسيحيين:-

ظلت مدينة يابرة في قبضة ابن وزير حتى جاء الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن على الكومى (٥٢٧-٥٥٨هـ) باستغاثة من ابن قسى نظير أفعال ابن وزير في عام ٥٤١هـ/١١٤٦م الذى أرسل جيشاً استطاع فتح المدن التي كانت في قبضة ابن وزير، ولم يكن أمام ابن وزير سوى بذل الطاعة لجيوش الموحدين وإعلان ولائه لهم، ومما يدلل على ذلك دعوة عبد المؤمن بن على لكل زعماء الغرب للقائه بالمغرب فكان ابن وزير من أول المرحبين، بذلك ابن وزير قدم فروض الولاء والطاعة، وأما بالنسبة لابن قسى فقد انتهى أمره بالقتل على يد أهل شلب لدخوله في طاعة الفونسو هنريكز ملك البرتغال وتعيين ابن المنذر مكانه معترفين بدعوة الموحدين حوالى عام ٥٤٥هـ/١١٥٠م [١]. مما سبق يتضح لنا أن النزاع والخلاف بين ابن وزير وابن قسى وضم ابن وزير عددًا من المدن إلى يابرة تسبب في ظهور قوة جديدة على أرض يابرة وتحولها من الحكم المرابطى الى الموحدى .

ومن الظواهر التي تستدعى التوقف عندها وتوضيحها أن يابرة وغيرها من مدن غرب الأندلس قد سقطت في أيدى الممالك المسيحية بعد تحولها للتبعية الموحدية، وعمل الموحدون على استرجاعها، ومما يدلل على ذلك قول ابن أبى زرع "وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، فولى عليها عبد المؤمن محمد بن على الحاج" ويقصد بالسنة عام ٥٥٦هـ/١١٦٠ م[٢].

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء ، ج٢،ص٢٠٠/ سحر سالم ، تاريخ بطليوس، ج٢، ص١٨٧-١٨٩.

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس،ص١٣١.

معنى ذلك أن يابرة ظلت في أيدى الموحدين حتى خسروها في الفترة من ٥٤٥هـ حتى عام ٥٥٦هـ واستطاع المسلمون استرجاعها بقيادة عبد المؤمن بن على ونجحوا في ذلك .

وعاشت يابرة في كنف الموحدين بعد هذه الأحداث لمدة خمسة أعوام تقريباً حتى جاء أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٣٥هـ - ٥٨٠هـ) – ثاني خلفاء الدولة الموحدية – ، وبدأت في عهده سلسلة من الغزوات عن طريق مملكة البرتغال بقيادة خيرالدو سيمبا فور Geraldo Sem Pavor [١] وانتهز فرصة الليالي الممطرة الحالكة المظلمة الشديدة الريح والثلج ، وقام بالهجوم على البلاد، مثل عادته وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان تعلو سور المدينة التي يؤم "يقصدها" ويروم فإذا نام السامر "الساهر" المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج ورقى عليها بنفسه أولاً إلى البرج ويقبض على السامر، ثم يدخلون المدينة ويقتلون من وجدوه ويأخذون كل ما فيها [٢]. ومجمل القول أن ملوك البرتغال يستعينوا باللصوص وقطاع الطرق من أجل سقوط مدينة مما يعنى فشلهم كثيراً في الاستيلاء والسيطرة عليها بإحدى الطرق التي اعتادوا عليها، واستعصاء المدينة عليهم، وشدة مقاومة أهلها، مما يجعلهم

---

(١) Giraido وتقول عنه الرواية العربية الإسلامية العلج جرانده الجليقى قاطع طريق ورئيس عصابة ألفى مجالاً طيباً لنشاطه في الظروف التى كانت سائدة في بلاد الغرب الأندلسية، وكان يغير على الأراضي الواقعة ما بين نهرى التاجة ووادى يانه ويعيث فيها قتلاً تخريباً ونهباً. لمزيد من التفاصيل انظر عبد الملك بن صاحب الصلاة "ت٥٩٤هـ"، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ص٢٧٣؛ عنان، عصر الموحدين،ص٢٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق، ص٢٨٨.

ينحدرون ويتدنون إلى هذا المستوى فأدروك تماماً أنه لابد من استخدام طرق مفاجئة غير متداولة؛ ولذلك استعانوا بهذه القوة من أجل سقوط المدينة.

وهنا بدأ في تنفيذ خطته فقد غدر بمدينة ترجالة Ttujillo سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م ثم مدينة يابرة في نفس العام وباعها من النصارى ، وربما المقصود هنا أنه باعها للنصارى ، رغم أن هذا التفسير غير صحيح؛ لأن خيرالدو لم يقم بهذه الغزوات والغارات من تلقاء نفسه أو لحسابه الخاص، وإنما كان يعمل لحساب الملك الفونسو هنريكز ؛ لأنها ضمن مناطق الاسترداد البرتغالي كما أنها امتداد لحدود البرتغال الجنوبية، وأكبر دليل على ذلك مؤازرة الفونسو هنريكز له وامداده بالمال والجنود. كما أنه بمجرد الاستيلاء عليها سلمها لألفونسو هنريكز، وأصبحت بعد ذلك قاعدة برتغالية تخرج منها القوات البرتغالية للهجوم على القلاع المجاورة، ولكى يتمم خيرالدو هجومة وسيطرته على يابرة اتجه إلى جبل مورش Mouros أحد حصون يابرة مترقباً الفرصة المناسبة لشن الهجوم عليه، وفى إحدى الليالي المظلمة كعادته اتجه بفرقته إلى برج القلعة المعروف باسم الطليعة Atalaia ، وصعد السور منتهزاً فرصة غفلة ونوم حارس البرج، فوصل لأعلاه، وقطع رأس الحارس، ثم اقتحم المدينة، واستولى أولاً على مخازن الأسلحة، وانتشر بعض جنوده في شوارع المدينة بينما اتجه البعض الآخر إلى باب المدينة، وفتحوه لدخول بقية الجيش، وأخذوا يقتلون سكان المدينة حتى استولوا عليها؛ عندئذ أرسل خيرالدو إلى الفونسو هنريكز يعلمه بالاستيلاء على يابرة كما غدر بكثير من المدن والحصون القريبة منها [١]. مما سبق يتضح لنا أن خيرالدوا سيطر على مدينة يابرة

(١) عبد الملك بن صاحب الصلاة ،المصدر السابق،ص٢٨٨؛ابن عذارى"ت٧١٢" ، البيان المغرب،ج٤،تحقيق عبدالله محمد على ،ص ١٨٠؛ النشار ، تأسيس مملكة البرتغال،ص١٧٥-١٧٦. Edward McMudo:The History of Portugal; ow,Mazrston,Searle,Rivington,1888,P.220.

وعلى حصونها وقام بتسلميها الى هنريكز، ولم تكن هذه الهجمات لحسابه الخاص، بل كانت بتوجيه من الفونسو، وجملة (أنه باعها من النصارى) ربما تعنى أنه سلمها لالفونسو نظير مبلغ مالي خاصة وأنه قاطع طريق، وليس عنده رسالة أو مبدأ ليحتفظ بها لنفسه.

وقد اختلف المؤرخون حول العام الذى سقطت فيه يابرة وقلعتها، فبعضهم يقول أنها سقطت في عام ٥٦١هـ/١١٦٦م، بينما يرى البعض الآخر أنها سقطت في عام ٥٦٠هـ/١١٦٥م ، ولكننا نميل إلى الرأي الثاني؛ لأنه أقرب للصواب ولمعاصرة مؤرخه لأحداثه(١).

أدرك الموحدون عندئذ رغبة الملك البرتغالي الذي يريد تجريد الثغر الغربي من حصونه الأمامية المنيعة للسيطرة على حاضرته بطليوس، وبسقوط الثغر الجوفي يتعرض قلب الأندلس للغزو وفق خطة موضوعة بين القشتاليين والبرتغاليين من أجل القضاء على الإسلام في الأندلس؛ حيث إن غرب الأندلس ومدنه- والتي يابرة من أهمها- يعتبر الصخرة التي تقف في وجه آمال المسيحيين بالأندلس، والتي تتدمر عليها أحلامهم؛ من أجل ذلك تطلع البرتغاليون إلى توسيع رقعة دولتهم تحقيقاً لحركة الاسترداد، فأرسل الموحدون حملة كبيرة بقيادة الخليفة أبى يعقوب يوسف، واشتبكوا مع نصارى شنترين بالتحديد؛ لأنهم المساهمون والمدعمون الأوائل لأعداء المنطقة، فمعظم سكانهم من النصارى ، وانتصروا عليهم وأسروا من بقى منهم على قيد الحياة (٢).

(١) ابن صاحب الصلاة ،المصدر السابق ،ص٢٨٨-٣٠٠؛ النشار ، المرجع السابق،ص١٧٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص٢٨٨-٢٩٠/ سحر سالم ، حضارة بطليوس،ص٦٤٩-٦٥٠؛ النشار ، المرجع السابق ،ص١٧٦.

ويعتبر هذا الهجوم البرتغالي في عامي ٥٥٦هـ/٥٦٤هـ انقلاباً خطيراً في النظام الدفاعي عن الثغر وهى الفترة التي سقطت فيها يابرة، وفى الشكل الجديد للحدود الإسلامية المسيحية .وتبعاً لذلك تغيرت الحدود تماماً عما كانت عليه من قبل بسبب سقوط العديد من مدن الغرب التي كانت بمثابة خط دفاع أمامي عن كل المنطقة، بالإضافة إلى تغيير الحدود العامة للثغر الجوفي؛ ففي عصر المرابطين سقطت بطليوس وشنترين ويابرة وبرتقال وغيرها من المدن بصفة مؤقتة في أيدى البرتغاليين، وقد شكل ذلك تحولاً خطيراً في شكل حدود الثغر الجوفي، ولكن المرابطين بذلوا كل طاقتهم لاستعادة الحدود القديمة للثغر الجوفي، ونجحوا في ذلك باستعادتهم كل المدن التي سقطت في أيدى العدو، ورجعت يابرة وغيرها من المدن إلى حوزة المسلمين، ولكن كانت عودة الحدود إلى ما كانت عليه مظهرًا شكليًا؛ حيث لم يستطع المرابطون إعادة الاستقرار السابق إلى تلك المناطق الثغرية، ذلك أن إعادة الحدود جاء مخالفًا لطبيعة الظروف السياسية والعصر؛ إذ إن بقاء الحدود على ما كانت عليه كان أمراً مستحيلاً في زمن المرابطين وبفقد المرابطين معاقلهم على نهر التاجة أصبح هذا النهر حدًا فاصلاً بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي في الأندلس بعدما كان خطاً دفاعياً [١].

وإذا كان عدم استقرار الحدود هو الظاهرة الواضحة في غرب الأندلس في عصر المرابطين فإن التحول الكامل كان في عصر الموحدين؛ بسبب تغير خط الحدود تغيراً تاماً، فبعد ضياع مدن كثيرة تقع في الشمال جعلت المدن التي تقع في الوسط والجنوب في وجه العدو وتزحزحت الحدود للداخل، كما قام العدو بإسكان

(١) لمزيد من التفاصيل انظر سحر سالم ،حضارة بطليوس،ص٦٥١- ٦٥٢.

هذه المنطقة بالنصارى، فأصبحوا بذلك ثغوراً مسيحية وقواعد عسكرية يشنون منها الغارات على باقي مدن الغرب [١].

وهنا تدخل فرناندو الثاني (١١٣٧- ١١٨٨م) ملك ليون ليحد من خطر البرتغاليين، ودارت معركة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة البرتغاليين ووقوع عدد كبير منهم في الآسر، وكان رد فعل البرتغاليين الهجوم على مملكة ليون ، ولما كان شانجة الثالث ملك قشتالة وشقيق فرناندو الثاني قد عقد اتفاقاً مع أخيه بعد وفاة والدهما الفونسو ريموندس السابع في عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م يقضى بتقسيم أراضي الأندلس إلى منطقتي نفوذ، حيث كانت منطقة الغرب التي تشمل بطليوس ويابرة وشلب وماردة ومنتانجش ونصف أشبيلية وباقي أراضي المسلمين بالأندلس تؤول لملك قشتالة في حالة استرداده هذه الأراضي من المسلمين ، وسمى – الاتفاق- بمعاهدة ساهاجون، فقد كان هذا الاتفاق بمثابة ضربة قاصمة للبرتغال؛ فقد حرمها من الاشتراك في حركة الاسترداد ومد حدودها جنوباً كخط طبيعي ؛ لامتداد المملكة والقضاء عليها وإنهاء وجودها؛ ولذلك كان اعتداء الفونسو هنريكز على بطليوس ويابرة وغيرها من مدن غرب الأندلس بمثابة تعدى على ممتلكات فرناندو الثاني، وهنا أصبحت الحرب مع ملك ليون والمسلمين سوياً، وانتهى الأمر بهزيمة الفونسو هنريكز وتنفيذ وعده لفرناندو بإعادة سائر المدن التي تقع بيده والتي قد انتزعها منه، وأما بالنسبة إلى جرانده، فيقال: إنه أسر مع الفونسو هنريكز، ثم أطلق سراحه، ثم عاد فرناندو إلى بلاده .

ومن هنا يتضح لنا أن فرناندو قد سلم كل المدن التي انتزعها من الفونسو إلى الموحدين علماً بأن يابرة وشنترين وقصر أبى دانس ظلوا في يد البرتغاليين؛

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص٢٨٨/ سحر سالم ،حضارة بطليوس،ص٦٥١-٦٥٢.

لأنه كان عليهم الاعتماد الأكبر في إمداد البرتغاليين ومساندتهم في حروبهم مع الموحدين، ودخلوا مدينة باجة وتصدى لهم الموحدون حتى طلبوا الصلح من الموحدين [١].

معنى ذلك أنه قد قامت محاولات عديدة لأجل استرجاع يابرة لحوزة المسلمين من قبل الموحدين، ولكن كل هذه المحاولات فشلت، وظلت يابرة في حوزة الممالك المسيحية. وبسقوط يابرة تتغير وتتحول حدود المنطقة كلية وتبعيتها، وأصبحت يابرة جزءًا من البرتغال بعدما كانت جزءًا مهمًا وحيويًا من أراضي المسلمين بالغرب .

وعلى الفور تنبأ البرتغاليين لقيمة ومكانة هذه المدينة التي وقعت بأيدهم وعملوا جاهدين للاحتفاظ بها ومتعظين من الدروس السابقة للمسلمين وفشلهم في الاحتفاظ بها؛ ولذلك قام البرتغاليون بتأسيس الجماعات العسكرية الدينية في البرتغال، وكان أقدمها جماعة أفيس الدينية العسكرية The Military Order of Avis ، والتي عرفت في أول الأمر باسم جماعة يابرة ، ويُعَتقد أن بداية نشأة هذه الجماعة رسمياً يرجع إلى أيام الملك البرتغالي الفونسو الأول هنريكز، وذلك حوالى عام ١١٦٦م، وربما قبل ذلك أو بعد ذلك بقليل، وكان الغرض منها الدفاع وتأمين الأراضي التي أستولى عليها الملك من المسلمين خاصة مدينة يابرة، وكان ذلك أيام حكم الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف (١١٦٣-١١٨٤م)، والذى عقدت معه هدنة حوالى عام ١١٧٢-١١٧٣م[٢].

---

(١) سحر سالم ، المرجع السابق،ج٢،ص٢٢٠-٢٥٠.

(٢) The Political and Cultural Reorientation on the Medieval Frontier : Stephen Lay ; Reconquest Kings of Portugal,2008,p.131.

محمود سعيد عمران ،الجماعات العسكرية الدنية في البرتغال في العصور الوسطى ،كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ،ص١-٢.

الاستنتاج Conclusion :-

مما سبق يتضح لنا أن :-

مدينة يابرة لا تقع على الحدود مباشرة، ولكنها تقع بالقرب من الحدود، وعلى الرغم من ذلك نجد موقعها الجغرافي والاستراتيجي المتميز جعل منها مدينة ثغرية حدودية عبارة عن مدخل ومعبر إلى قلب الأندلس، الأمر الذى جعلها على مدار تاريخها في حالة مد وجذر، وأدرك المسيحون جيداً أن وقوعها في أيديهم يخدم أحلامهم التوسعية؛ فسوف تسهل مهمتهم بالأندلس، ويستطيعون بالسيطرة عليها العبور إلى وسط الأندلس، ومنه لأى مكان يريدونه؛ فالوسط هو نقطة التحكم في كل الأندلس، وبذلك اعتبرت يابرة بمثابة متحكم في وسط الأندلس وجنوبه، وهنا كان لزاماً على العرب الحفاظ عليها وتحصينها جيدًا وإدراك مدى خطورة هذه المدينة على جيرانها الشرقيين والجنوبيين.

- يابرة كانت نقطة انطلاق مهمة لحملات وتطلعات وأحلام المسيحيين بالأندلس.
- الصراع على يابرة والرغبة في السيطرة عليها لم يقتصر على المسيحيين فقط، فقد كان للمدينة أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين وبعضهم البعض، فهي بمثابة حصن منيع مدافع عن حصون الغرب؛ ولذلك لم تفلت المدينة من صراع واحتجاجات المسلمين أيضاً على حدودها، فهي مدينة من الطراز الأول، وفقدها خسارةُ كبيرة لن تعوض، والاستحواذ عليها بمثابة تفوق وغلبة لهذا الطرف على الطرف الآخر، فهي مفتاح الغرب للشرق .
- اختيار أردون الثاني لمدينة يابرة كنموذج لاحتجاجه ونزاعه على أراضي المسلمين بغرب الأندلس بالرغم من أنها ليست بأهم مدينة إسلامية بالمنطقة ظاهرياً كان صائباً، وفى هذا دلالة على مدى حنكة أردون

ودراسته الجيدة للأمور قبل الإقدام عليها؛ فهي مدينة نائية متطرفة بالنسبة للممالك المسيحية، وفى نفس الوقت قريبة لقلب الأندلس والحكومة الإسلامية ومأهولة بالسكان المسلمين، فأدرك أردون أن أي محاولة سيقوم بها في غرب الأندلس ستحبط قبل السيطرة علي يابرة.

- المطالع لتاريخ هذه المدينة دون تعمق قد يظهر له أنها تبعت الممالك المسيحية أكثر عمرها، وما ذلك الا لحرص المسيحيين الشديد على السيطرة عليها وحرص المسلمين الأشد على أن تكون لهم دون غيرهم؛ الأمر الذى يدلل بوضوح على قيمة هذه المدينة حدودياً وسياسياً.
- لم يتحقق الحلم الليونى في جعل يابرة مركزاً رئيساً لعملياتهم العسكرية في غرب الأندلس حيث تصبح نقطة تهديد للمنطقة، ولكن هذا الحلم تحقق على أيدى البرتغاليين
- بداية التغير الفعلي فى شكل حدود يابرة بعد عام ٤٨٤هجرية .

تواريخ مهمة للمدينة

السنة / العام	الحدث
٩٦هـ/٧١٥م	سقطت المدينة بيد المسلمين
٣٠١هـ/٩١٣م	هجوم أردون الثاني على مدينة يابرة
من ٣٠١هـ حتى ٣٠٢هـ	مدينة خاوية على عروشها خالية من أي مظهر من مظاهر الحياة.
٣٠٢هـ	بناء عبد الله بن محمد الجليقى ليابرة بمساعدة مسعود بن سعدون السرنباقى
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	محاولات العرب بقيادة بنى عباد لضم يابرة

السنة / العام	الحـدث
٤٦١هـ/١٠٦٨م	يـابرة تحـت حكـم المتوكـل عمـر بـن الأفطـس ومحاولـة صاحبها ضم ما حولها من مدن .
٤٦٤هـ/١٠٧١م	يابرة تحت حكم العباس بن عمر المتوكل بن الأفطس
٤٨٤هـ/١٠٩٢م	يابرة تحت حكم المرابطين
من ٤٨٤حتى ٥٠٤هـ	سقطت يابرة خلال هذه الفترة في يد هنري البرجونى
٥٠٤هـ/١١١٠م	استرجع سير بن أبى بكر يابرة
٥٢٦هـ/١١٣٢م	هجوم قادة شلمنقة على يابرة
٥٢٨هـ/١١٣٣م	استرجعها يوسف بن تاشفين لحوزة المرابطين
٥٣٩هـ/١١٤٤م	ثورة محمد سيدراي القيسى ابن وزير ضد المرابطين بيابرة
٥٤١هـ/١١٤٦م	يابرة تحت حكم الموحدين
٥٥٦هـ/١١٦٠م	سقوط يابرة في يد البرتغالين

والله ولي التوفيق ،،،